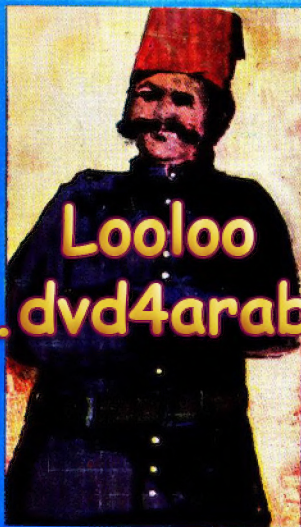


يوسف أدريس

# العسكري الأسود



Looloo  
[www.dvd4arab.com](http://www.dvd4arab.com)

دار العودة - بيروت

حين أتحدث عن السر الذي كان يحيرني في «شوقي»  
 ولا أعرف له سببا أو تفسيراً ، لا أقصد إبتسامته المشهورة  
 عنه التي كان لا يتسم ليبر بها عن شيء بقدر ما يستعملها  
 كقناع داخلي يخرج من فمه حين يريد ليغطي به ملامحه  
 ويخفي وجهه الحقيقي عن الناس ، ولا أقصد أيضا نظراته،  
 النظرة التي كان يطليها بزيت تعبيري معين دوره ان يجعل  
 بصرك ينزلق عن عينيه ولا يستقر لحظة ، وكأننا لو استقر  
 لأدركت سره وعرفت ما به ، ولا أقصد أيضا الطريقة الغريبة  
 التي كان يتصرف بها انبثاقاً لأنفعال المفاجئة التي يدهش  
 بها الحاضرين كلما ضمه مجلس وأفلتت من احد الموجودين  
 كلمة ما ، اثارت تعليقاً ما واذا بك بعد ثوان قليلة من ضيقه  
 المبالغت تجده على قدميه ، وقد افتعل عذرا لا يهمه ادراك  
 الحاضرين لوجهته ، وغادر المكان الى الخارج الطلق الى

اي مكان . هذه ايضا لا اقصدها ، ما اقصده شيء بالضبط  
لا أستطيع التعبير عنه ، بل ولا حتى نجحت في اكتشافه  
بعد الحادث الهائل الذي قدر لي ان اكون شاهد عيان ،  
الحادث الذي كثيرا ما جلست وحدي استعيد دقائقه ،  
لعلي المبحر هذا الشيء الواسع المروع الذي كان «شوقي»  
يضم عليه جوانحه ، واشهد اني في احيان قليلة جدا استطعت  
بالكاد محاصرته وان فشلت في تحديده ومعرفته ، بل لكي  
أكون صادقا مع نفسي ، أعترف اني في جلوسي لكتابة ما  
حدث ، ليس لي من هدف سوى امل واحد : ان اوفق عن  
طريق الكتابة فيما فشلت فيه عن طريق الخيال ، بصراحة  
أكثر أقامر ، اذ من يدري ، لعلي اذا انتهيت اكون قد فسر  
كل شيء ، ووصلت الى الحقيقة التي دوختني محاولة  
النوصل اليها . . .

٢

بدايتنا متواضعة جدا ، لم اكن اتصور ابدا ان  
باستطاعتي ان اصل منها الى سر ما ، خطير او غير خطير .  
البداية مكتب حكيماشي المحافظة في بناية المحافظة القديمة  
التي تهدمت الآن . كنت كلما وجدت نفسي في ميدان باب

الخلق بساعته المعهودة، وواجهة دار الكتب ومئذنة الجامع  
القائم في وسطه كالنافورة العالية التي جف ماؤها . تذكرت  
«شوقي» ، وكلما تذكرته وجدت نفسي مدفوعا بشكل  
تلقائي للذهاب اليه، خاصة اذا كان الوقت بعد الظهر، اذ  
ان «شوقي» كان يعمل في المكتب الطبي للمحافظة ، وكان ،  
لأسباب ليس هنا مجال تفصيلها قد اختار فترة بعد الظهر  
ليكون النوبتي فيها ، اسباب لعل احدها واهمها ان الطبيب  
حين يعمل في تلك الفترة كان ينفرد بالعمل في المكتب ويصبح  
هو رئيسه ، فالحكيماشي لا يعمل الا في الصباح . . ورئاسة  
المكتب الطبي ، والجلوس على كرسي الحكيماشي ، وتلقي  
تحيات المراسلة والمستخدمين متعة لا بد أن ترضي غرور أي  
طبيب شاب ، اما حين يعمل في الصباح فلا يصبح اكثر من  
مجرد طبيب مرؤوس واحد بين اربعة او خمسة زملاء . .

ونفس هذا المكتب هو الذي كان يضئنا حين القى  
عبدالله التومرجي بتلك الجملة التي قلبت جلستنا بل علاقتنا  
كلها رأسا على عقب ، قال :

— ده خلاص يا بيه . . الرجل بقى يههب زي الكلاب  
ويعوي زي الديابة .

حسبنا أول الامر احدي مبالغاته، ومبالغات عبدالله

التومرجي كانت شيئا مشهورا في المكتب ، خاصة في تقدير  
أثمان القهوة والشاي وحساب السندوتشات . وعبدالله  
لم يكن تمرجيا أصلا ، كان عسكريا في القسم الطبي  
بالجيش ، وحين دخل البوليس جعلوه مراسلة للمكتب  
الطبي ولكنهم وجدوه أكثر لعلجة وذكاء من التومرجي  
الاصلي ، أعطوه دوره ، وأصبح بجلبابه « الدمور » الميري  
وطاقتيه ذات الحائط العالي وجهته العريضة اللامعة  
المائلة في خجل خبيث دائم ، وبالذات حين يخفضها ويقول  
بلهجة خضوع عسكري ظاهر : أفندم ، كلمة ذات وقع  
على آذان الأطباء المدنيين تتيح لهم بعض متع العسكرية  
ودفع سطوتها أصبح عبدالله بهذا ، وبقبائه الذي كان لا  
يتناسب أبدا مع حركته الكثيرة علامة من علامات المكتب  
الرئيسية ، كما أصبحت وقفته امام باب الحكيمباشي نصف  
المعلق ، وشخطه في الرواد القدامين متأخرين والتحايل  
لابعادهم ، علامة رئيسية من علامات جلستي مع « شوقي » .

ولولا رنة دخيلة صادقة في جملة ، ما التفت « شوقي »  
أو التفت إليها ، كنت قد تعودت اذا بدأ « شوقي » يتحدث  
في العمل مع عبدالله أو غيره ، أو يزاوله أن أنصرف كلية  
لافكاري وتأملاتي .. الجملة استخرجتني منها وجعلتني  
أسأل عن هذا الذي يعوي كالذئب ويهيب كالكلاب ،

وأجد انه دوسية ، أو على وجه اصح صاحب الدوسية  
الضخم الذي كان موضوعا فوق مكتب « شوقي » ..  
كانت الساعة تقرب من الرابعة والنصف ، وكنا في الصيف ،  
والحجرة قد دخلت من روادها . ورواد الحجرة معظمهم من  
مجتمع القاهرة السفلى متسولون ، ومتشردون ومجاذيب  
وذوو عاهات . ومدعون ومتشاجرون ، فرادى وجماعات ،  
في سلاسل وكلاشيات ، وأحيانا مربوطو الجلابيب حتى لا  
يغافل أحدهم العساكر وينسل هاربا .. رواد بمحاضر  
وخطابات من الأقسام لتوقيع الكشف الطبي عليهم لتقدير  
أعمارهم . وعاهاتهم ، تهيدا لسلسة الاجراءات الطويلة  
التي تتخذ معهم .. ولا يخلو الامر من متشاجرانق ، أو  
تهمة بهتك عرض ، أو بنت ذوات ، .. هذا عدا العساكر  
طالبى الاجازات ، وأحيانا شاوشية وضباط ، عدد ضخم ،  
كان طابوره يبدأ من باب المحافظة . ويملأ فناءها الواسع  
وينتهي عند ذراع عبدالله الممتدة تسد باب المكتب الطبي  
المفتوح وعند صوته المبحوح المطالب عبثا باحترام الدور ..  
العجيب أن « شوقي » كان ينتهي من طابور بعد الظهر كله  
فيما لا يزيد على الساعة ولكن أي ساعة ، حتى حين تخلو  
الحجرة بعدهم ويوصد عبدالله الباب يبقى الجو مشبعا  
بأشباح تكاد تتدخل في الحديث الدائر بيني وبينه ، أشباح  
أشخاصهم ومآسيهم ، وأشباح روائعهم أيضا ، ورائع



خاصة ، ليست مقرزة كما قد يتبادر الى الذهن ولكنها مختلفة بالتأكيد عن رائحة الافندية مثلا او جموع الفلاحين، رائحة لا تصبح مقرزة الا حين تختلط برائحة الفنيك الذي ترش به الارض ، وال دود. وعرق المني العتيق والاثاث الذي بقرت مسانده ، وتتجمع هذه كلها ، ويأتي عليها ظهر يوم صيف كيوم الصيف ذاك وما بعده فيحولها الى بواخ يملأ الحجرة ، وينعقد حتى سقفها العالي ، بواخ يخنقنا ويكاد يدفعنا لمغادرة المكان . ولكننا لم تكن نفعل .. بالعكس ، كان احساسنا بالاختناق الخارجي ذاك يوفر علينا الكثير من احساسنا بالاختناق الداخلي ..

كنت و « شوقي » شابين من شباب الجيل الذي اصطلحوا على تسميته بالجيل الحائر . صديقين بلا سبب يدعونا للصدقة او حتى للاتساب الى جيل واحد، تفقت عنا الحرب العالمية الثانية لنجد أنفسنا هكذا زملاء في كلية او جامعة واحدة ، بنزعات سياسية وآراء في الناس والحياة لا يمكن أن يربط بينها رابط ، ومع هذا فكنا أصدقاء لا لاننا كنا هازلين في خلافاتنا اذ الحقيقة أننا كنا فيها أكثر من جادين ، وتمسك كل منا برأيه ووجهة نظره كان يصل أحيانا الى حد ارتكاب الجريمة ، ربما السبب في الصداقة المهيمنة الكبيرة التي جمعتنا أننا كنا جميعا نؤمن ، رغم اختلاف طرقنا ووسائلنا أن لنا رسالة واحدة نحن مبعوثو

العناية لتحقيقها ، انقاذ بلادنا وتغيير مصير شعبنا تغييرا جذريا ، والى الابد ، وهكذا بدأت واستمرت علاقتي بشوقي .

كان تعارفا في مؤتمر للطلبة عقدناه في الكلية، ونتيجة تشاتم في الرأي ولا اقول خلافا ، تشاتم كاد يصل الى حد التشابك ولكننا حين خرجنا من المؤتمر كنا قد نسينا الخلاف، وكنا نتعازم على الشاي .. وصرح لي ونحن جلوس على المقهى أنه - بينه وبينه - كان يوافقني في الرأي لولا الموقف الذي كان عليه فيه ان يناصر زملاءه اعضاء الجماعة التي كان ينتمي اليها . ولكنها نقطة واحدة هي التي كنا مثقفين فيها ، فقد كان استنكاره لما أؤمن به لا يقل عن استنكاري لأرائه ومعتقداته ... ولم تفعل الايام التي تلت اكثر من ان تزيد كلا منا استنكارا لآراء الآخر ، ولا أعرف مع هذا لماذا كانت في نفس الوقت تزيد من علاقة كل منا بالآخر ... الجيل واحد صحيح ولكنه شيع، واهتمامات ... أناس منا كانوا يرحون ويقضون الليالي حول موائد البوكر الذي يلعب بقروش ويسمونه قمارا ، وشلل أخرى « تزوغ » من المحاضرات وتدمن حفلات السينما الصباحية، وفرق همها الرياضة والجري بالفنلات حول الملاعب ، وجماعات للاغتيال والارهاب ، ونحن المهتمون بالسياسة

والمؤتمرات والخطب ، نحن الذين نبادل الآخرين الرياضيين وأصحاب النزوات الاحتقار ، ونرد على اتهامهم لنا بأننا مهاوئس ، باتهامنا لهم بأنهم منحلون ... وفيما بيننا أيضا تبادل التهم ، التعصب يرد عليه بالالحاد ، والفاشية يرد عليها بالشيوعية ، ومع ذلك ، وربما من أجل ذلك ، يظل يجعنا ذلك القوس العريض الذي كنا نطلق عليه برهة وتقديس ... السياسة . « شوقي » بالذات كنت شديد الضيق منه قبل أن أعرفه ، بذكرني إذا ما قام ليخطب بياعة « الشرب » وخالعي الانسان في الاسواق ، بل حتى شكله لم أكن أستلطفه ، كان شاحب الوجه لسبب غير معلوم وبطريقة يبدو معها شاربه الغزير أكثر سوادا من حقيقته ، شاربه الذي ما هضمت ابدا اسباب وجوده .. ولا استطعت ان افسر هذا التناقض الواقع بينه وبين ذهنه . فهو غزير وذقنه لمساء ناعمة نادرة اشعر كذقون المراهقين . كان نحيفا ، متوسط القامة ، جاد الملامح الى درجة لا تملك معها الا الاستخفاف بجده . كان أحد زعماء الكلية ، وأحد زعماء مذهبه ، ولكنه أبدا لم يكن ذلك المتوهوس الاحمق الذي لا يفلح معه تفاهم أو نقاش ... كان دائما على استعداد لمناقشة أكثر الآراء بعدا عن رأيه ، يرحب بالجدل بابتسامة واثقة ، ولا يشور ... وكثيرا ما كنت أتحمس ، وأعتبر أن عيه الاكبر انه في المعسكر الآخر ، وأحلم بأنني

يوما استطعت اقتاعه ، وبأننا يوما ما اتفقنا على رأي، ولكنها أحلام ، مجرد أحلام ، فقد كان « شوقي » يستع بطاقة ارادة هائلة وكأنه ولد وهو يعرف بالضبط ما يريد ومتأكد أنه واصل اليه لا محالة . وكان يبدو وكأن ارادته تلك ترسب ايمانه في قلبه طبقة فوقها طبقة ، وكل يوم تزيده عمقا وتشعبا ، بطريقة محال معها من أن يتزلزل ايمانه ذلك بايمان جديد .

الى أن حدث ذلك الحادث السياسي الذي هز البلاد كلها ، وقبض على « شوقي » ، وأدخل السجن تمهيدا لمحاكمته . وربما لفرط ايماني به كزعيم من زعماء جيلنا ، وتقديري له ، عجبت للأسف القليل الذي أعقب اختفائه من الكلية ، حتى بين البقية الباقية من أفراد جماعته .. وكنت كلما سألت عنه ظفرت بإجابات غامضة عن مصيره ، بل ولكي أسجل الحقيقة ، تنصلا من الاجابات الحقيقية عن مصيره ومصير المقبوض عليهم من زملائه وغير زملائه . ولا أعرف اذا كنتم لا زلتم تذكرون تلك الفترة من تاريخنا القريب ، ولكنني متأكد أن جيلنا أبدا لن ينساها ، جيلنا الحائر وأعوام ٤٧ ، ٤٨ ، والاحكام العرفية ، وعهود الارهاب البشع المخيف .

تلك الفترة كانت أول ضربة جديدة تلقاها جيلنا ...

خرجنا من الحرب لتجد جيوش الاحتلال ترتع في أرضنا ،  
ثرنا ، فحاولوا الضحك علينا .والجلاء السوري الى القتال  
وفايد ، ثرنا مرة أخرى مطالبين بالجلاء الكامل ، والكفاح  
المسلح ، وهذه المرة ضربونا ، جاءوا بدولة الباشا وضربنا  
علقة كوبري عباس ، وحاول أن يضرب أكثر فقتل ، فجاءوا  
بدولة باشا آخر ليكمل العلة . وأكملها ، فتح السجون  
على آخرها ، سلب الارهاب بكل أشكاله ، كم الافواه ،  
أخمد الاصوات ، أطلق العملاء . وبعد أن كانت كليتنا  
تموج بالمؤتمرات والخطب والثوار أصبحت تموج بالبوليس  
السياسي والاشاعات والخوف وحرب الاعصاب وتشتت  
شمل الجيل ، دخل السجن بعضه ، والبعض اختفى وهرب ،  
في الارياف ، والمدن البعيدة ، وأحيانا داخل نفسه ، حفر  
حفرة عتيقة في صدره دفن فيها ثورته ومعتقداته وردم عليها  
وأصبح همه الوحيد أن يردم عليها أكثر وأكثر ويدعي عكس  
ما يعتقد ، في تلك الاثناء شاعت قصص التعذيب ، وطار  
صيت العسكري الاسود وما يفعله بالمساجين المعتقلين ،  
وأصبح رمزا لكل ما يناله جيلنا من ضربات وأصبح هو  
مبعث رعب الجيل ، ذلك العسكري الذي كان يرقد  
« دوسيهه » بعد سنوات كثيرة وسنوات ، على مكتب  
« شوقي » ، والذي كان مقدرا لنا أن نراه بعد هذه المدة  
الطويلة ، وبطريقة لم نحلم بها ابدا .

٣

وليس هذه محاولة لسرد تاريخ ، إن هي إلا لمحة  
نعود بعدها لشوقي ، اذ بعد شهور طويلة من انقطاع الصلة  
بيننا لم أره الا يوم الامتحان . فوجئت به يدخل علينا  
الخيمة ومعه جمع من زملائه مكبلين بالحديد ومعهم جيش  
من الحراس بينادق وكونستبلات . يومها عبر اللجنة  
وأوراق الاسئلة . تبادلنا ابتسامات ، راعينا ان تكون خفية ،  
وكان عيونا غير مرئية ستلاحظها وتسجلها ، ألم أقل اننا كنا  
في فترة ارهاب وماذا يفعل الارهاب أكثر من أن ينجح في  
جعل كل منا يتولى ارهاب نفسه بنفسه ، فيقوم هو  
باسكاتها واخضاعها للامر الواقع الرهيب ١٩٩

المفاجأة التي لم أكن أتوقعها ، كانت ، اني عرفت حين ظهرت  
النتيجة أن « شوقي » قد نجح . كيف ذاك وعلوم الطب



تحتاج الى الخبرة العملية والمران ، وكيف أجاب ، وكيف  
نجح ، لا أعرف ، المهم أنه نجح ، ومع هذا ظل مسجوناً لا  
يفرج عنه ولا يقدم للمحاكمة ولا يواجه بتهمة ، أشياء لا  
تحدث الا في عصور مظلمة ، أو في بلاد ، رغم العالم  
المضيء ، لا تزال تجا في تلك العصور ... لم يفرج عنه  
الا بعد انقضاء فترة طويلة ، ولم أعرف بالخبر الا حين كنت  
مارا بالقسم الذي أعمل به في المستشفى الكبير بعد تخرجي  
فلمحتة جالسا في غرفة الحكمة وعليه سيماء التردد والخرج  
وكأنه قادم لزيارة مريض ، والمفاجأة الكبرى التي كانت  
تنتظرني أنني عرفت أنه قد عين في نفس المستشفى ، بل أكثر  
من هذا في نفس القسم الذي أعمل فيه . ورغم انشغالي  
بضجة الترحيب به لم يفتني أن ألاحظ أن أشياء كثيرة جدا  
تغيرت فيه ، الى درجة حسبته للوهلة الاولى انسانا آخر ،  
خاصة وجسده نفسه كان قد تغير وأصابه ما يصاب به  
المسجونون من ترهل ، وحتى ذقنه نبتت وغررت وأكسبت  
لونه سمة . ولكنني على أية حال قابلته كما يقابل البطل  
العائد من معركة ، والمكافح الخارج من سجن بعد اتهام  
خطير . وكذلك ظلت أعامله - ولم أكن وحدي ، زهلاؤنا  
الاطباء وممرضات القسم ، وبعض مرضاه ممن عرفوا قصة  
الطبيب الجديده كلنا ظللنا نعامله، وتتوقع منه دور البطل،  
وتقبل تصرفاته خلال الايام الاولى لالتحاقه بالعمل على

أنها نوع من التواضع وانكار الذات ... كان التخرج قد  
عمل عمله في نظرتي للناس والأشياء ... وخفف من حدة  
اعتقادي برأيي وإيماني وأصبحت أؤمن بالحسن أنني وجد  
الحسن وبالبطولة أنني وجدت البطولة ، وأصبحت أحتفل  
بكل عمل مخلص حتى لو صدر عن مخالف في الرأي وعدو  
في العقيدة ... وكان أقصى آمالي أن تحين اللحظة المناسبة  
لاجلس جلستي التاريخية مع « شوقي » ويقص علي فيها  
كل ما دار له في رحلته التاريخية المليئة لا بد بالمواقف  
والبطولات ... والحقيقة حانت أكثر من لحظة وأكثر من  
مناسبة وألقيت على « شوقي » أكثر من سؤال وكانت  
النتيجة أنني لم أظفر منه فقط بأي جواب ، بل كان يحدث  
« لشوقي » حالة أحس معها أنه يبدو عليه وكأنه ينكر أصلا  
أنه سيعال السؤال ، اعتقدت أول الامر أنها مغالاة من  
« شوقي » لتجنب الحديث أمام المرضى او على مسمع من  
الزملاء او الحكيمات ، انه على أسوأ الفروض يؤجل  
الحديث الى زمن قادم قريب ، ولكن الزمن كان يضني  
والايام تنقضي فلا زبده الا استسكا بموقفه ، مشكلة  
أخذتها أول الامر ببساطة ولم أعتقد أبدا أنها يمكن ان  
تقودني الى اكتشاف ، بساطة لم تمنعني من أن أبدأ بطريقة  
لا شعورية أتبّه لشوقي ، وهدفي طول الوقت ان أستخلصه  
من تلك التي اعتقدت أنها « حالة » اتتته بعد خروجه من



السجن ، والتي كان من الطبيعي جدا أن تنتابه ، استخلصه ليعود مرة أخرى ذلك البطل الوطني الذي عرفته ، ولو حتى سار في طريق تختلف كلية عن طريقي ، كنت متأكدا أن « شوقي » ليس من النوع الذي تكفي بضعة شهور من السجن لكي تغيره وتدفعه للتنازل عن رأيه ، مع أن أيامها كثيرا ما كنا نقابل زملاء ومعارف دخلوا متحسين وخرجوا وقد طلقوا السياسة والوطنية وكل ما يمت اليهما بصلة ، وكأنما كان السجن هو الحجة التي ينتظرونها لينفضوا يدهم من المعركة .

أقول ، بدأت أكتب لشوقي ، وكان اول ما لاحظته ان نظرتة اكتسبت طابعا آخر لم يكن لها ... كان قسي عنيه دائما يريق يشع ويكسب ملامحه جاذبية خاصة ، جاذبية المؤمن بحقيقة تضيء نفسه وتفسح ملامحه الضوء الداخلي وتشعه ، ويتركز النور في عينيه ، وينقل للعالم صورة نفسه المؤمنة . ذلك البريق كان قد اختفى ، وكأنما اجتث من جذوره ، ولم يبق لعينيه حتى اللبقة التي تميز عيني كل كائن حي ، كنت كلما نظرت في عينيه أحس باحساس غريب خاص يضيّقني أنني لا أستطيع إدراك كنهه ، وأتّى لي أن أعرف أنني أستطيع أن أدرك كنه ذلك الاحساس الا هناك ، بعد أعوام طويلة ، وفي زمان ومكان كان مستحيلا أن يخطرا على البال .

ثم بدأت أعي أن صوت « شوقي » نفسه قد تغير ، فأصبح لا يتحدث الا همسا ، همس مؤدب خافت كمن يتوقع دائما أن ترفض طلبه ... ثم هاتان النظارتان ، لا أقصد النظارتان الطبية ، أقصد تلك التي تتركب للخيل لكي لا ترى الا في اتجاه واحد ، هاتان النظارتان الخفيتان اللتان لا تجعلانه يرى الا ما أمامه ، وما أمامه فقط ، أين هذا من « شوقي » المتلفت دائما حوله ، الباحث المنقب في كل شيء من امور الدنيا والناس ، الغاضب الثائر اذا وقعت عينه على الخطأ ، المهدد الدنيا بالويل والتغيير واخضاعها لما يريد ...

شيئا فشيئا ، طوال شهرين أو ثلاثة عملنا فيها معا ، أيقنت ان محاولاتي لاستشارة « شوقي » البطل داخل هذا « الشوقي » الجديد محاولات لا فائدة منها ، بل حتى ألمي في أن يخرج عن صسته مرة ويحدثني عما لاقاه خلف القضبان . تشاءل وانعدم تحت تأثير الموقف الواحد الغريب الذي كان يلتزمه .. وكان لا بد أن يأتي اليوم الذي أبدأ أو من فيه ان « شوقي » لم يتغير فقط ، ولكنه أصبح بالتأكيد انسانا آخر غير شوقي الذي عرفته .. كم من مرة ضبطته يتآمر مؤامرات صغيرة في القسم ليتاح له مثلا أن يحظى بعملية « فتق » أكثر مني ومن زملائه ، كثيرا ما سمعته يوافق

« النائب » الذي لا يكبرنا في العمر أو في الوظيفة إلا بعام واحد من أجل أن يقرضه كتاباً أو يدعه يلقي نظرة فسي « المنظار » ويكذب .. يكذب باستمرار ، وبلا سبب ، وبطريقة ساذجة مكشوفة تدفع للاستئزاز ، ولم أصدق الاشاعة التي أطلقتها الحكيم عليه إلا بعد أن رأيت بعيني ، رأيت كيف يحضر المرضى في « كشك » الغيار ويساوهم مساومات رخيصة على أن « يتوصى » بهم في العلاج ، ويأخذ في مقابل هذا بضعة قروش ، هي كل ما يمتلكه المريض الراقد في عتير المستشفى .

أكثر من هذا لاحظ عليه زملاؤنا في « بيت الامتياز » الذي نقيم فيه انه ما من مرة دخل فيها حجرة احدهم الا واختفى بعد خروجه شيء من محتوياتها ، أي شيء ، ولو كان فرشاة اسنان قديمة ، حتى أطلقت في البيت حكمة تقول: اذا حياك شوقي باليمين فتحسس محفظتك باليسار ، وعلى عادة الاطباء حداثي التخرج كثيرا ما عقدت مؤتمرات لمناقشة حالة شوقي ... وكثيرا ما أجمع الكل على انه مصاب بالكليبتومانيا أو جنون السرقة ... وكان عميرا علي أن أشهد مؤتمرات كذلك وأن أرى شوقي الذي طالما قدره هؤلاء الاطباء أنفسهم وهم طلبة باعتباره الزعيم والمكافح يصبح ليس محط سخريتهم فقط ، وانما محط استئزازهم واحتقارهم أيضا ، من بين مائة طبيب

أو يزيد ، يصبح هو ، الزعيم ، أحقرهم وأصغرهم شأناء لا أريد أن أسرد كل ما كان يفعله شوقي في سنة الامتياز أو بعدها ... العيادات التي افتتحها والنصب والابتزاز والنظرة الافعوانية الغريبة التي كان ينظر بها الى المرضى والناس ، وكيف قاطع عائلته بعد التخرج وأبى أن يساعدهم بسلام ، وكيف ، ومن ، والطريقة البالغة الشذوذ التي تزوج بها ، والتي حصل بها على الدبلوم ، و « سعى » حتى عين في هذه الوظيفة في مكتب حكيماشي المحافظة ، لا ولا بأي أسلوب وحشي كان يعامل رواد المكتب ، وخاصة رواده من العساكر طلابي الاجازات ... شاهدت مرة عسكريا يكيي أمامه بدموع حقيقية يستحلفه ويرجوه ان لا يكتب انه متمارض حتى لا يحاكم ويخضع من مرتبه أيام ، ولا يفعل الرجاء والالاحاح ، ولا تفعل الذلة والدموع أكثر من أن تجعل شوقي يبتسم وتومض ملامحه في غبطة ، خطورتها أنها كانت حقيقية أيضا .

السؤال الذي لا بد أن يلح على القارئ هنا ، لماذا بعد كل ما ذكرت ظللت مبقيا على علاقتي بشوقي ؟

والاجابة صعبة ، فصحيح كان شوقي قد تحول من زعيم طلبة الى كائن مزعج مؤذ أصابني شخصا ببثل ما أصاب غيري من ازعاج وايداء . ولكني لم أكن أرى

المسألة هكذا ، ولا اعتبرتها حالة « كليتومانيا » ، ولا تغييرا في شخصية شوقي تسبب عن فترة سجنه . كنت وكأننا أرفض أن اصدق ان بضعة شهور من السجن تحيل انسانا ، مهما كان ، من النقيض الى النقيض ، وكأننا أرفض أن اعتقد أن شوقي القديم قد مات وانتهى ولم يبق منه الا ابتسامة واسعة تدرب على استعمالها ، ابتسامة مهما بالغ فيها تبدو دائما فاترة صادرة عن الشفتين فقط ، يقول بها المريض في عيادته الخاصة أهلا وسهلا ، ولزوجته صباح الخير ، ويرد بها على تحية عبد الله التومرجي ويخفي بها ملامحه اذا أخرجته بسؤال ، ابتسامة في جملتها تحصل ملخصا وافيا لحياة ناجحة بالمعنى الفاتر الواسع السطحي للنجاح ... لم أكن أرى المسألة هكذا . كنت لا أزال أؤمن أن شوقي لم يضع ضياعا نهائيا وأن كل ما يبدو من تصرفاته ان هو الا انعكاسات قشرية محضة صادرة عن قشرة صدا ألم بشخصيته ، وانها أجلا أم عاجلا ستزول ، والمسألة تتوقف علي وعلى مجهودي معه ، باستطاعتي أن أتركه وشأنه يفرق ويتلاشى تماما ، وباستطاعتي أن أنزل محتفظا بعلاقتنا أحاول بلا بأس أن أعود به مرة أخرى ذلك الكائن الثائر النافع لشعبه وبلده ... كان الواقع يؤكد لي أن شيئا هائلا خطيرا قد حدث . انظر الى شوقي وأدقق فيه وفي شخصيته ، فأحس وكأنه مجروح ، لا ، ليس

جرحا صغيرا في الصدر أو الرأس ، واننا جرح جرحا شاملا من قمة رأسه الى أطراف أقدام شخصيته ، وأن ما أمامي ليس شوقي ، ولكنه الندية الضخمة التي تخلفت عن الجرح ... انظر اليه وازداد غنادا وايمانا بأن كل خطأ ممكن اصلاحه ، وكل جرح ممكن أن يشفى ويندمل ولم يكن مبعث تفاؤلي هو أمني الخاص فقط ... هناك ، في الغلاف الخامس أو السادس لنفس شوقي من الداخل كانت منطقة لا أستطيع أن أحدد أبعادها أو كنهها بسهولة ، كل ما أستطيع قوله عنها أنها كانت منطقة استماع ربما ، أو رغبة عارمة مخنوقة للاستماع لا تجد لها متنفسا الا من خلالي ، أو على وجه أصح الا من خلال تلك الزيارات المتباعدة التي كنت ألقاه فيها ، في عيادته أحيانا ، وفي مكتبه بالمحافظة أحيانا .. هناك حيث نجلس طويلا نتبادل آفقه الاحاديث ، عن مصير الزملاء والكادر الجديد ، ولكن كان يحدث دائما أن يلتفت شوقي مرة الى الناحية الأخرى ، وكأننا يخفي علي بهذه الحركة أفعاله ، وبسألني عن الحالة سؤالا أحس معه بتلك المنطقة جوعى ، تكاد تشتقق ظلما ولهفة ... وما كنت في اجابتي آتي بالنادر أو الجديد ، كنت اتحدث ذلك الحديث الذي نجده جميعا في السياة بأنواعها وأشكالها ، وأحلل ما يجري منها في الداخل والخارج ... ومن الصيد الشخصي المحض الى صمد

القوى العالمية الرحبة المتصارعة في عالمنا الحافل ، ورغم أن شوقي كان يرفض دائما أن يتحدث هو أو يعلن ، بل ويتعمد أن يبدو حين أتحدث أنا ، وكأن لا صلة له بالموضوع أو الحديث ، أو ليس له علاقة مباشرة أو غير مباشرة بكل ما يست إلى كائن أو قوة خارجة عنه ، رغم هذا إلا أنني كنت ألحظ دائما أنه رغم كل تشابه يستمع ، ويستمتع بلذة مبهوفة ينجح في اخفائها معظم الاحيان ، حتى اذا سكت استار سكوتي بـؤال جانبي أو بجذبة نفس من سيجارة أخرى يشعلها ويبتلع دخانها بطريقة من يسود أن يطفىء بدخانها طمأ بلغ درجة الحريق ، هو الذي طالما ألقى علي ، ونحن طلبة ، المحاضرات في مضار التدخين ودلالاته الخلقية المشينة ، هو الذي أصبحت أظافر يئناه ويسراه والعقد الأخيرة من أصابعه بنية محترقة من لون التبغ . وتطاول الجلسة ، وأنا أفضض عن نفسي بالحديث ، وشوقي يفضض عن نفسه في حذر عظيم ، بالاشتاع وكثيرا جدا ما كنت أتأمل المشهد بروح منفصلة محايدة ، فأرانا فردين من أفراد جيلنا الحائر الذي حمل الرسالة فوق كتفيه حتى كاد أن يسحقه الحبل ، فردان جالسان في حجرة كشف مغلقة ، أو في مكتب حافل بالروائح ، ندخن بكثرة وكأننا تنوي الانتحار مدخنين ونشحن المكان بسحب متكاثفة لا نعرف ان كانت من احتراق السجائر أم من احتراق

الصدور ، ولكننا مع هذا لا نكف ، بل ننضي نحرق اللقائف وتحرقنا ، ونسأل الجو بدخان يضغط على صدورنا لتخرج دخانا أكثر ، وأملنا أن ينجح الضغط المتكاثف المتزايد في افراغها مما تحفل به ، من كتل الحديد والرصاص والماسي المترسبة في أعناقنا تجذب أرواحنا إلى أسفل وتحني ظهورنا قبل الألوان ، ونحن اثنان أبعدتنا المقادير عن جيلنا كما أبعدت جيلنا عن بعضه ، وقذفت بنا داخل هذه القساقم المتداخلة من الجدران والأدخنة والمخاوف ، وبيننا مطاردة لا تنتهي ، أنا + الغريق ، أحاول انتشارل شوقي وجذبه ، وشوقي يرفض مذعورا أن ينجو ، وأنا أوصل محاولاتي وكأننا تبلورت أهدافي ومعتقداتي في محاولة انقاذه ، وهو كأننا تبلورت رسالته في محاولة اغراق نفسه أكثر ، وإذا استطاع اغراقي ، وبنا للسخرية ، لقد كنا بالامس نعمل ، وأملنا مؤكدا أننا سننقذ الشعب كله . فاذا كل منا اليوم غير قادر أن ينقذ نفسه ، بالساعات كنا نجلس هكذا لا نتبه إلى الوقت إلا بسؤثر من الخارج ، بليل يهبط أو تليفون ملح يدق . أو حدث غير عادي يقع : كتلك الجملة التي نطق بها عبد الله التومرجي وهو يشير إلى الدوييه . جملة لم أكن أعرف أنها ستقودني وستقود شوقي إلى هذا الذي كان ينتظرنا بعد ظهر يوم الصيف ذلك ...



على نفسه ركوب الترام أو الاتوبيس أو استعمال عرقته الخاصة إذ في هذه الحالة تقوم عربة المكتب الحكومية «الاستيشن واجن» بتوصيله خلسة بعد الانتهاء من المهمة... في محاولة بحثه عن الاشارات عثر على الدوسيه ، ويسؤال عبد الله عنه فتطوع الرجل بذكر حكاية العواء والهيبة وما لبث أن أعقبها بتلك النصيحة ، وتصاصح عبد الله لم تكن مجرد نصائح ، كانت في معظم الاحيان أوامر واجبة النفاذ ، إذ رغم أنه تومرجي المكتب الذي بالكاد يجيد القراءة والكتابة الا أنه لطول عهده بالعمل كان هو الحافظ الوحيد تقريبا لكل لوائح وقوانين القسم الطبي وبالتالي المرجع الاساسي لحل المضلات اذا نشبت معضلات ، وقتواه هي النافذة إذ كان يثبت في النهاية ، ومهما ثار الحكيمباشي والاطباء عليه ، ان رأيه هو الصحيح وهو الذي ينطبق تماما مع كل ما جرت به اللوائح والقوانين .. وشوقي بالذات كان لا يناقشه إذ كان أخوف ما يخافه أن تحل الكارثة مرة فيخطيء في حق لائحة من اللوائح أو قانون من القوانين ، هو الذي بدا عدوا لكل قانون . أصبحت المسئولية هي عدوه الوحيد اللدود ، يفعل المستحيل ليتجنبها . ومستعد أن يسير أميالا اذا كان في السير ما يجنبه فقرة واحدة يتحمل فيها درهم مسئولية . الى درجة كان يتخيل الي فيها أحيانا أنه يود لو يشف جسده

لم يقل عبد الله أول الامر انه العسكري الأسود... كل ما قاله ردا على استفسار شوقي :

— ده يا بيه مشكلته معقدة وحالته حال... ماننا احنا بيه ما تسييه للحكيمباشي لما بيجي الصبح يعرف شغله معاه...

كان شوقي في ذلك الوقت مشغولا باحدى عملياته الصغيرة ، كان يبحث في دفتر الاشارات التليفونية التي ترسل للمكتب لتطلب توقيع الكشف على العساكر أو الضباط المرضى ، وكان يفعل هذا لحكمة ومصلحة... فقد جرت عاداته أن يجرد الاشارات ليختار منها واحدة يكون العنوان المذكور فيها قريبا من عيادته اذا كان يريد الذهاب للعيادة أو من بيته ، ويختارها هكذا لكي يوفر

ويشف حتى يصبح كائنا أثريا لا يتحمل مسؤولية إيجاد مكان له فوق سطح الارض أو نظرة يلقاها عليه انسان ، ومع هذا تعجب لتسككه بالحياة ونهسه الى الدنيا بطريقة يكاد معها أن يتلعها ، لو استطاع ، داخل جوفه .

أي كائن بالغ التعقيد كان قد أصبح شوقي ؟!

المهم ، انتهزت فرصة النقاش الدائر بين عبدالله وشوقي ، ومددت يدي ، وتناولت الدوسيه ، ملف خدمة ذلك العسكري .. تناولته وقد انبث في قصي حب الاستطلاع الكامن تجاه هذا النوع من الدوسيات . كثيرا ما رأيتها في أقسام المستخدمين وقد دمغت بكلمة « سري جدا » . وكثيرا ما اردت تقليبها ، ووقف النظام الذي يقضي بأن لا يطلع عليها الا الرؤساء ، وفي حالات الضرورة القصوى ، حائلا بيني وبين ما أريد .. رحبت أقلب صفحات الدوسيه الكثيرة ، أكثر من مائتي صفحة ، في أولها شهادة ميلاد ، وتوافق مضحك أن أجد أن عباس محمود الزنظلي صاحبها وصاحب الدوسيه قد ولد في نفس العام الذي ولدت فيه ، والذي يسبق مولد شوقي بأشهر ، كنت أتصور صاحب الملف عجوزا أو على الأقل في الأربعين ، فإذا به لدهشتي من نفس جيلنا الحائر التعس . مضيت أقلب الصفحات ، ما كان أشبه الملف بكتاب ضخ ، حياة

انسان .. حياة كان واضحا أنها من أولها مضطربة غير مستقرة لم تنش ابدا على الصراط المستقيم ، خدمته نصفها الاول كله جزاءات تتراوح بين الخصم والتكدير وتقارير تنس السلوك ( رغم الشهادة المرفقة بالمسوغات والتي يقر فيها انسان من الموظفين أنه حسن السير والسلوك ) . ثم فصول أخرى تتعدد فيها حركته وتكثر التقلبات والالتدابات وينتهي بذلك الخطاب المتوج بشعار مجلس الوزراء الذي يطلب نقله الى حرس الوزراء ، ومن تلك الصفحة لا خصوم ولا انذار ، وانما تفاجأ بقرارات بعلاوات ثم أمر بترقيته الى رتبة أومباشي ، بعدها قرار آخر بترقيته استثنائيا الى شاوش ثم صورة من خطاب شكر وتقدير من وزير الداخلية . ثم صورة قرار آخر بمنحه نوط الواجب من الدرجة الثانية « تقديرا للجهد المشكور الذي بذله في أداء واجبه والتفاني في خدمة مصالح الدولة العليا » .

ولكن هذا كله لم يستغرق من الدوسيه الا أقله ، اذ أغلب الصفحات كانت ما تلت ، وكلها طلبات باجازات مرضية وخطابات متبادلة بين الحكمدارية ووزارة الداخلية وقومسيون طبي المحافظة مؤرخ أولها في نوفمبر ٤٩ وآخرها بعد سنوات ، وبالتحديد في اليوم السابق لذلك اليوم الذي كنت فيه مع شوقي في مكتبه . ورد خطاب

أرسلته المحافظة الى الحكيمباشي تطلب فيه توقيع الكشف  
الطبي على نفس عباس محمود الزقلي لاثبات عجزه  
الكامل تمهيدا لفصله من الخدمة .

وما كدت أنتهي من لائق الصفحة الاخيرة ، حتى  
كانت أذني تلتقط اخبارات الحوار الدائر بين شوقي  
والتومرجي ، والاخير يقول وكأنه بهم باطلاعه على سر .

— عارفشي حضرتك عباس محمود الزقلي يبقى  
مين ؟ .

وقبل أن يطلق شوقي أو يسأل ، وجدت عبدالله  
يقول :

— ما هو ده اللي كانوا يسموه العسكري الاسود  
يا بيه . حضرتك ما سمعتش عليه والا ايه ؟!

ولم يجب شوقي .. كل ما حدث أنه ثبت على  
وضعه ، وثبتت ملامحه على تعبيرها السابق .. لم يقل  
شيئا ولم يدهش أو يستنكر ، ظل هكذا وقتا ثم دون ان  
يغير من وضعه أو يتحرك شيء في ملامحه مد يده ، وتناول  
مني الدوسيه ومضى يقلب صفحاته .. صفحة صفحة  
وبامعان تقرأ عيناه كل سطر ، وأيضا دون ان يخلج وجهه

او لسانه أو وضعه بانفعال . كم من الوقت مضى على  
شوقي وهو يقرأ ، الله وحده يعلم ، اذ كنت في الحقيقة  
مشغولا عن الوقت بما هو أعظم ، بالاهتمام البالغ الذي  
كان لفرط خطورته غير باد على شوقي ، ولكنك تحس  
وجوده ، تكاد تلمسه ، تعتقد لا بد أن شوقي تحول الى  
كتلة اهتمام رابضة تقرأ وتقلب الصفحات .. أول مرة في  
علاقتنا طوال سنين أراه يكرس نفسه كلية لشيء ، فنفسه  
دائما كانت كالاشعة المارة من خلال عدسة مقعرة لا تسقط  
على شيء بذاته او لذاته ، ولا تتركز في نقطه وكلما  
حاولت تبددت وتفرقت وكأنما هناك تنافر مشحون بين  
أجزائها يمنعها أن تلتقي أو تتوحد . كان دائما معك ومع  
نفسه ومع أشياء أخرى لا تمت بصلة الى الزمان او المكان .

يفكر ولا افطن انه كان يفكر ، ولكن عقله بالتأكيد كان يقوم بعمل ما في تلك الدقائق التي استغرقتها الرحلة الى « قلعة الكباش » حيث كنا ذاهبين عمل جاد خطير ما في ذلك شك تحس اذا ما نظرت اليه أنه يحرك اعماقه ويرجها ، بطريقة تئن معها أنينا صامتا وتلوى ، تلك التي قد ظننت انها مثل قلب الشجرة او النخلة حين يجف ، قد يبست من زمن وماتت ..

ولم يكن سروري بغير مرر ، كنت رغم كل ما كتبه الجرائد عن العسكري الاسود لا أكاد أصدق احتمال وجوده الحقيقي ، بل حتى لم أكن قد صدقت عبدالله وهو يؤكد لنا أن عباس هذا هو العسكري الاسود ، لأمر ما كنت اوقف إيماني بوجوده ، وحقيقته ، الى أن أراه رأي العين واحادثه ، ولهذا ارتضيت ، بل طلبت من شوقي أن أصبحه ، ولم تكن المرة الاولى التي أصبحه ، ولكنها الاولى التي اطلب فيها ، ولم يكن الامر مجرد حب استطلاع ، كان أكثره العسكري الاسود ، مثله مثل السجون والارهاب والامجاد والكفاح المسلح ، علامة رئيسية من علامات جيلنا كيف تفوتني رؤيتها .

أردت أن أسأل شوقي عن حقيقة دور العسكري الاسود ، هو الذي سجن ولا بد ان لديه الحقيقة ، أردت

الحقيقة كنت أشعر بسرور صياني الطعم وأنا جالس بجوار شوقي في المقعد الخلفي للعبة الحكومية ، وسائقها يستغل سترته الرسمية في ارتكاب ما شاء من مخالفات وفي المضي بسرعة مجنونة غير حافلة بشتائم المارة والسائقين ، او مجيبا عليها في سره - تأديا - بأقبح منها وبجواره عبدالله التومرجي ، لا يكف عن الحديث ، ولا يكف عن الحاحه المقيت بأن تترك الموضوع للعد وللحكيماشي والضيق بالمهمة باد عليه ، وكان الكشف على زميل له « لتشريكه » وفصله ، مسألة تزعجه ويأبى أن يشهدها أو يكون طرفا فيها .. والصامت الوحيد تماما فينا كان شوقي . كان قد نحى الابتسامه التي كان يعقم بها ملامحه كي لا تتم عن انفعال ، أو حساس ، ومضى ، ربما للمرة الاولى وأنا معه ،



قال شوقي بعد وقعة تردد :

- جاز .. انما العسكري الاسود كان بالنسبة لنا  
شيء ثاني .. شيء غير الحاجات الجنسية والكلام الفارغ  
اللي سمعت عليه .. شيء ثاني خالص \*

وهذا الشيء الثاني هو ما رحى ، مستعملا كل  
مقدرتي على الاستدراج . أسأل شوقي عنه ، وازداد  
الحاحا . ساعتها لم أظفر منه الا بكلمات قليلة ، ومعظم  
الاحيان اصوات مضغومة صادرة عن انسان مشغول بما  
هو أخطر مما تنقله له اذناه ، او كل حواسه ، ولم يقدر لي  
ان اعرف الا فيما تلا ذلك من ايام وجلست ، والا من  
التف المتفرقة التي استطعت ان اختلس النظر اليها في  
البحث السري الذي انشغل شوقي بكتاته وتعمد ان يخفيه  
عني ، ولا اريد ان اصور الامر على ان ما عرفته كان هو  
التفسير الكامل لسلوك شوقي الغريب بعد خروجه من  
السجن ، فالحكاية حينئذ تبدو ساذجة كحكايات الافلام  
وتشيليات الاذاعة ، انسان يدخل سجنا بشخصية ويخرج  
بشخصية أخرى مختلفة ويظل سر هذا التغير يثوق  
صديقا له الى أن يبدأ شيء يحدث وتنفك العقدة ، ويتكلم  
البطل ويفسر اللغز وتنتهي المشكلة ..

ليت الانسان كان كذلك ، ليت كان كسائل

رغم كل تجاربي السابقة الفاشلة معه ، اذ في كل مرة كان  
يرى السؤال يتراقص على لساني ، او يتخذ شكل الكلمات  
كنت أفاجا بنظارة الخيل التي تهبط في الحال ومن مكان  
خفي وتجعله يشغل نفسه مشغولية عظمى بنا في يده أو  
بالمريض الذي يسحب له السائل من بطنه ، وبذلك الطريقة  
يبدو ، وكأنه ينكر ليس علي ، وانما على نفسه أنه سمع  
مجرد السؤال .. هذه المرة ، ورغم الظرف الحاد ، تنكر  
ايضا للسؤال ، ولأذ بالعميلة الغريبة الدائرة في عقله .  
ولكني لم أأس . أعدت السؤال والحجت ، وظللت أبسط  
ما أريد واسهله الى الحد الذي اصبح مجرد ان اعرف ان  
كان قد قدر لشوقي ، اثناء سجنه ، أن يرى العسكري أو  
يسر به . وراحة عيقة مزوجة بالدهشة والوجل  
والاستنكار ، وأوله استنكار نجاحي ، هو ما احسسته ،  
وشوقي أخيرا ينطق ويحجب :

- أيوه .. حصل

راحة كراحة وكيل النيابة حين يظفر ، لا بعد ليلة ،  
وانما بعد مئات الليالي بعد سنين ، ببارقة كلمة ينطقها  
شاهد او يلج شبح اعتراف ، وفي الحال سألته :

- يعني كلام الجرائد كان صحيح ؟

الحساب او تمارين الهندسة يخضع لقانون واحد أو تفسره بضع نظريات .. ليته لم يكن ذلك الكائن الذي لا تزيدنا معرفتنا به الا تصعبا لمهمة فهمه ، واي حقيقة نكتشفها عنه ويخيل لنا اننا بها وصلنا الى سره ، لا تفعل أكثر من ان تضيء الطريق الى مناطق كنا نجهلها ، مناطق في حاجة الى اكتشافات اخرى لا يفعل اكتشافها الا ان يزيد من حاجتنا لكشف حقائق أكثر .. التغير الذي حدث لشوقي لم يكن من ذلك النوع الذي يرجع لسبب معين او وراء سر ، ولم يكن سكوت شوقي وعزوفه عن الحديث في السياسة او مزاولتها مثلا ، بسبب عقدة نفسية تكونت له او خوف ، كان ما حدث لشوقي شيئا آخر ، شيئا يشبه خروج الفراشة من دودة الشرقة ، او تحول الخشب بفعل النار الى رماد .. وليس معنى هذا أيضا انه كان قد تحلل الخشب بفعل النار الى رماد .. وليس معنى هذا أيضا انه كان قد تحلل وقسد ، بالاختصار ، كنت قد بدأت خاصة في الثقرات الاخيرة أثبت أني كنت على خطأ ، وان محاولاتي « لانقاذ » شوقي كان لا يسكن ان تأتي بنتيجة اذ كنت أقوم بها باعتبار ان ما حدث لشوقي كان مجرد تغيير أصابه . من الممكن جدا أن يشفى منه .. الحقيقة بدأت أدرك انها غير ما كنت اتصور تماما ، فشوقي الذي دخل السجن لم يخرج منه ، وانما الذي خرج شخص آخر له

مزايا ومضار اخرى واقول شخص كنوع من التبسيط لا أكثر ، فالذي خرج كان علينا كائنا غريبا ، أخطر ما فيه انه لا يختلف كثيرا عن شوقي الذي دخل ، ولا عن ملايين البشر الذين كان يحفل بهم سطح الارض حين انضم اليهم شوقي بعد خروجه ، فهو يتكلم مثلهم ويغضب ويسدير أمور المستقبل ويحب وحتى حين تتحاشى الخوض في مواضيع بعينها لا يختلف عنهم .. الفرق لا يتضح الا هناك وبعد طول دراسة ومعايشة واهتمام غير عادي بالموضوع .. هناك حيث تدرك ، مثلما ادركت ، ان الخلاف بين شوقي الجديد وبقية الناس يكمن عميقا ، اعلم من طبقات التصوف ، في الدافع ربما ، هناك حيث تدرك ان شوقي وان ظل في ظواهره بشرا فهو في حقيقته لم يعد يست الى البشر ، ولا الى انواع الادميين المتعارف عليها من عقلاء او مجانين او مرضى او شواذ باستطاعتك ان تقول انه خرج ليكون نوعا جديدا قائما بذاته ، اذ قد خرج ليحيا بدافع جديد تماما على الجنس البشري ، فهو لا يعيا ليتكاثر أو يبقى او يتطور ، وانما دافعه للحياة كان أن يهرب ويفر وكأنه لم يعد يرى في الجنس البشري كله سوى جن وعقاريت هما ان تنقض عليه وتعقره وتفكك به ، هم جميعا شياطين ، وهو وحده الانسان او هم جميعا بشر وهو وحده الشيطان الذي يعادونه ويضطرون به ولن

يهدأوا حتى يقضوا عليه .. ومأساته كانت ان عليه أن يظل يحيا على ظهر الارض مع هؤلاء الذين يخاف منهم ويرهبهم . عليه أن يعاملهم ويتصرفوا في أمره ويتصرف في امورهم ويصادقهم ويؤاملمهم ، هو الذي ينتفض رعبا منهم . لم يعد لحياته خطة او ارادة او هدف بعيد يسعى لتحقيقه ويدفعه للبقاء حيا ، دافعه للبقاء أصبح ان يهرب ، ليس مجرد هرب بسيط يمكنه معه أن يتصل من تبعات الانسان العادي فيطرحها جميعا ويسير كالمجاذيب ببلاد الله لخلق الله . ابدا ، عليه ان يهرب وهو موجود بينهم ، الفرار حينئذ يصبح عملية معقدة بالغة التعقيد ، قد تستغرق العمر بأكمله ، ما اغربه من كائن فقد أمنه البشري وكأنما غره كلب من نفس الجنس وخيل اليه أنه نقتل بجلده من العقرة الاولى فجند نفسه وحياته ليتحاشى العقرة الثانية ، واصبح لا يرى في البشر غير قطع من ذئاب او كلاب او شياطين لا يستطيع ان يهرب من ارضها الى كوكب آخر او يعتزلها في جزيرة نائية ، قطع يتربص به في كل مكان ، عليه ان يلقي افراده في كل وقت ، ويحادثهم ، ويربط مصيره بمصيرهم ، وعليه ان يفعل هذا دون أن يبدو عليه الذعر ، عليه أن يسير بينهم كما تمر بالمكان الذي يعج بالوحوش الخطرة ، ترتجف من الذعر ، أذنانك منتصبة تلتقي أوهى الاصوات ، وكيانك كله مهيا

للجري في أية لحظة . ومع هذا فعليك ان تخفي كل ما بك ، عليك ان تسير وتحيا دون ان يبدو منك أقل الخوف ، تسير طبيعيا جدا مطمئنا جدا ، تؤكد بنظراتك وتعبيراتك أنك غير خائف او مهتم وانك مبسم ، وانك فرحان احيانا وغاضب احيانا اخرى ، وانك مثلهم بشر ، او مثل الكلاب كلب ، بل جيدا لو بدوت اقوى واقدر وأكثر ثقة بنفسك وقواك .. حياته لا هدف لها ولا خطة ولا ارادة له فيها ولا يريد من خلالها ان يصل الى أي مأرب بعيد أو قريب اذ مأربه الوحيد ان يتجنب الخطر المتربص به كل لحظة ، فيحيا اللحظة بلحظاتها ، ويبنى حياته لا عن طريق أعمال يضعها فوق بعضها ليكون هرما شخصا ، ولكنه يبنينا الى أسفل ، يخفرها تحت الارض كجحور متسعة ملتوية معقدة كلما احس في جحر منها بالخطر فر وانطلق يكون جحرا آخر ، وغاية وقتية سفلية هروية اخرى .. انه يعرفك ويقيم معك الصداقة او الزمالة امعانا في الهرب منك ، ويجاذبك اطراف الحديث ليبيك عن نفسه ، ويتفكك او يصنع معك المعروف لكي يرشوك ، ويتزوج كي يهرب من مسئولية عدم الزواج ، ويعمل في قومسيون طبي المحافظة لكي يفر من البوليس والمباحث حتى ولو كان الفرار الى قلب البوليس . وهو لا يدركه انه محاصر بالجنس الخطر في كل زمان ومكان . ابدا ، وحيدا . اذا

صرخ او استغاث فلن يخفف احد لنجدته ، بالعكس ،  
 سدركون جميعا انه وقع ويلتمسونه حيا ، لهذا فاعتماده  
 الكامل على نفسه ، هو اصدق اصدقائه ، وصدره أنسب  
 مكان لاسراره ، وعليه ان يعمل جاهدا لكي يقي أكبر جزء  
 من نفسه ، بل كل نفسه ورغباته وحذره وخوفه بعيدا جدا  
 عن الانظار ، داخل نفسه وعليه أيضا أن لا يبدو وكأنه  
 يخفي شيئا ، بهذا لو بدا كثيفا لا يظهر منه شيء على  
 الاطلاق بهذا لو احتوى كل دنياه داخله واختفى بكل ما  
 يحتويه عن الدنيا .

كائن غريب ليس له نفسية المجرم مثلا فهو لا يكره  
 الناس او يحقد عليهم ، ولا يريد ان يؤذي احدا ، او حتى  
 كالمعقور المصاب بداء الكلب البشري ، همه ان يعثر  
 الآخرين ، ابدا ، همه فقط ان ينجو واذا اضطر لا يذء  
 احد فهو يفعلها بخبث شديد ويختار بعناية تامة ضحيته  
 ولا يفعلها انتقاما او ليخيف بها احدا ممن يحيطونه من  
 المردة والجن ولا حتى يقوم بالايداء دفاعا عن نفسه ، كما  
 يفعل أي مجرم ، انه يؤذي فقط لكي يموه على من حوله  
 من جان وكلاب ويثبت لهم انه جني هو الآخر ، ليتنكر في  
 زي الشياطين عسى أن ينجح في اخفاء حقيقة نفسه عن  
 الانظار ، تلك الحقيقة التي لا يعرفها سواه ، آه لو  
 عرفوها . آه لو ادركوا رغبة العارمة في البقاء حيا ،

رغبة اكبر من رغباتهم مجتمعين ، رغبة عارمة في الحياة  
 يورقها دائما الخوف الهائل المجنون من الاحياء .

ذلك هو الكائن الذي خرج من السجن وله نفس  
 الاسم ، شوقي ، الكائن الذي له كل مظاهر البشر ، وفي  
 قرارة نفسه لا يمت بصلة الى البشر ، بل يستعمل عقله  
 البشري وكل ما منحه الحياة للانسان من مزايا ، ليفر من  
 البشر ، ليبعد ، ليختلف جذريا عنهم ، ليبدل طاقات خارقة  
 كي يعمق هذا الاختلاف بشئ ما يبذل من طاقات خارقة  
 أخرى كي يخفيه . وكى يبدو في الظاهر أكثر شبها بغيره  
 من الناس ، واقرب الى البشر من البشر أنفسهم .

من حقكم أن تسألوني كيف عرفت ، وكيف وصلت  
 الى حقيقة شوقي واكتشفتها هكذا ، ولن أبالغ وأدعي  
 أنني أدركت كل هذا بنفسي ومجهودي ، فصحيح أنني  
 بذلت جهدا خلال معرفتي الطويلة به كي أؤمن أشياء  
 وأبحث وراء المعاني المخفية لكلماته ، وأدقق في تصرفاته  
 التي كانت ، مهما أجاد في اصفاء الاقنعة الطبيعية عليها ،  
 تناقض أحيانا وتتضارب ، وينتج عن تضاربها شرارات  
 نضوي وتدفع المهتم الى الاستقصاء والتنقيب وجمع  
 الدلالات والخروج بنتائج ..



صحيح كان شيء كثير من هذا قد حدث ، ولكن الصورة لم تكتمل في خاطري ولم أبدأ أدرك وأعي أنني كنت في ظنوني وتخميناتي على حق ، الا عن طريق لم يحدث أن خطر بيالي أبدا ، من مصدر لم يكن بينه وبين شوقي أدنى صلة ، فهل يمكن أن يتصور أحد أن توجد صلة بين الدكتور شوقي وبين « نور » زوجة عباس محمود الزقزلي أو على وجه أصح ما روته نور عن عباس! يمكن أن يتصور أحد أنه من خلال قصة تحكيها عن زوجها تبدأ الخيوط المهمة في ذهني والناقصة والمنسية تتكامل وتنظم وتضج بحيث ما أن تنتهي حتى أكون قد وصلت الى التصور الكامل لذلك الكائن غير البشري الذي أصبح شوقي!١٩

ولكنها الحقيقة ، ولتعد الى ما حدث ..

٦

وان يكن شوقي قد لاذ ، ساعة أن سأله ، بالعملية الغريبة الدائرة في عقله ، الا أنني في مرات أخرى بعد حادثة اللقاء ، ظفرت من بعض زملائه القدامى الذين التقيت بهم صدفة عنده .. ظفرت بأشياء ، فيها الغموض أيضا ، ولكنها رغم غموضها استطاعت أن تجدد الملامح الرئيسية لدور العسكري الأسود في حياة شوقي وزملائه دوره الخطير الثاني الذي لا يست بصلة الى الاشاعات الجنسية التي أطلقتها بعض الصحف عليه حين انكشف أمره وبعد زوال حكم الارهاب وبداية مراجعة الجرائم التي ارتكبت في ظلّه . كان عمل عباس محمود الزقزلي هذا أن يضربهم ، يضرب بعضهم لكي يعترف ، وآخرين لمجرد الضرب وهذا الكيان .. الضرب بمختلف أشكال الضرب ، بالعصي ، بالكرايج ، بالحذاء ، بالنبوت ، باليد العارية المجردة . ولم يكن أسلوبها وصفته

الصحف وأفاضت ، كأن فقط غامق السرة ، ومن الصعيد ، وكان مجرد مرآة بالهالة المحيطة به من أبشع القصص يثير الذعر في القلوب ، كان طويلا ، أطول من قامة الكثيرين ولكنه ليس فارع الطول ، وكان يبدو دائما مزهوا بنفسه وبقوته ، حتى على زملائه ، إذا سلم على الواحد منهم ظل يضغط على يده ، لمجرد الضغط ، حتى يتأوه صارخا ويجهث . . . وحين يضرب كأن من يراه لا يظن أبدا أنه يست إلى الإنسان أو الحيوان بصلة ، بل ولا حتى للآلة ، فالآلة لا تبدو على وجهها المتوحشة وهي تضرب . . . ويا للحظات قدومه ودخوله العنبر ودوران مفتاحه في القفل ، كانوا يعرفونها تماما وباستطاعتهم أن يميزوها عن غيرها حتى في الحلم ، ويستيقظون ، رغم خفوتها ، على وقعها . . . ومع كل دورة من دوراتها تدور دوامات سريعة في صدر كل منهم ، يسقط فيها قلبه ويهوي . . . ترى من عليه الدور ؟ صوت خطواته ، وهو يجتاز الفناء الأسفل . . . التسمع الرهيب لوقعها . آذانهم وكيف تعلمت ، علمها الذعر الأعظم ، أن تتركز فيها الحياة كلها ويتضح دورها ليصبح كل العقل ، وتستطيع أن تميز بين الخطوات الذاهبة إلى زنزانة ٧ في الدور الأول والآخرى المتجهة عبر الفناء إلى السلم حيث الدور الثاني . ومن أول وقع لأول خطوة على أول سلمة عليها أن تعرف

إلى أي دور في نيته أن يصعد . فإذا اختار الدور عليها أن تدرك في ومضة خاطفة أي الزنازن يقصد . كي تعد نفسها اما إلى الرعب الهائل المقيم . أقصى درجات الرعب . واما إلى استرخاء مرعوبة هي الأخرى وتعيدة حمد الله .

ويا لخصه ضربه ! . في الحياة العادية حين يتشابك الناس ويتضاربون ليس هذا بضرب ، فاحساس المضروب أن باستطاعته أن يرد الضربة يخفف كثيرا من وقع ما يتلقاه ، والالم الذي ينتج عنها يتخفف في الحال ويستحيل إلى حافز يدفع صاحبه للهجوم والانقضاض بالاختصار أنت لا تشعر بالضرب حين تكون حرا أن ترد . . . أنت تشعر به هناك ، حين يكون عليك فقط أن تتلقاه ولا حرية لك ولا حق ولا قدرة لديك على رده . . . هناك تجرب الاحساس الحقيقي بالضرب ، بألم الضرب ، لا مجرد الألم الموضوعي للضربة أو الالم العام الناتج عنها إنما بألم آخر مصاحب أبشع ، أقوى ، ألم الاهانة ، حين تحس أن كل ضربة توجه إلى جزء من جسدك توجه معها ضربة أخرى إلى كيانك كله ، إلى أحساسك وكرامتك كإنسان ، ضربة ألمها مبرح لأنها تصيب نفسك من الداخل ، إصابة مباشرة لا يحجبها أو يخفف منها جلد أو لحم أو عظام أو حرية أو حق الإنسان أن يتصرف كالإنسان ويرد ، وهذه كلها دروع لو تعلمون عظيمة ، أن حرية الإنسان حتى أن يرفض أو

يقبل أو يرد الاعتداء جزء لا يتجزأ من جسده وكيانه ولحمه وجلده وانسجته الواقية الحية ، هي ، وليست ملابسه أو جدران بيته التي تحفظ عليه ماء حياته كإنسان ، وتحصيه . وهي التي إذا انتزعت منه لا يموت كما يحدث للسلحفاة إذا انتزع غطاؤها ، لبيته كان يموت ، ولكنه يبقى إنسانا منزوع الحق في حماية نفسه والدفاع عنها ، فما بالك إذا كان يرغم على أن ينتزع هو بنفسه هذا الغطاء ، وتجبره القوة العاشقة على السكوت .. على تلقي الألم والسكوت ، على التنازل عن إنسانيته وحتى عن خصائص الحيوان فيه والسكوت . حين يستحيل إلى كومة عارية من لحم خائف مذعور لا يستطيع أن تعض أو ترفس ، عليها أن تتلقى الألم وتسكت عليه ، والسكوت على الألم أشد إيلاما وإيذاء من الألم نفسه ، خاصة إذا كنت أنت من تتولى أسكات نفسك .. الضرب . هذا النوع من الضرب ، حين لا يبقى أمامك لكي تمنع ألمه وعاره إلا أن نحتمل وتصبر ، أو تقتل نفسك وتتجرع ، عمل لا يستطيعه ويقدر عليه معظم الناس ، وحتى إذا قدروا فقانون الحياة نفسه يرفضه ويمنعهم من اتباعه ، أذكيف يعقل وانت في موقف تدافع فيه عن نفسك ووجودك أن تشرع في قتل نفسك ومحو وجودك . بالعكس ، أن ابشع ما في الأمر أنك لا تحتمل فقط وتصبر ولكنك تزدد استساكا

بالحياة . وتصل بك حلاوة الروح إلى درجة مخجلة في شدتها وقوتها . وهكذا في مقابل كل ضربة هائلة الألم عارمة القسوة مهينة . تتلقاها من الخارج ، تهال عليك ، من داخلك وذات نفسك ألف لعنة ، ألف طعنة . ألف احساس مخجل مهين تمزق احشاءك وتذيب كماء النار ، روحك ، لأنك لا تموت ولا تريد الموت ولا تزال حيا تمسك ذليلا بالحياة ...

والابشع هو مرآه ، مرأى الزنفلبي عباس . العسكري الصعيدي الاسود ، وهو يضرب ، ومنظره وهو يستمتع بتخريب كائن حي وإنسان ، والمضروب يتحول أمامه إلى كتلة اللحم المذعورة التي تصرخ في فزع أعمر فلا يفعل مشهدها أكثر من أن يغربه بالضرب أكثر والتمتع بلذة الهدم أكثر ، فيمضي يضرب ويضرب سعيًا وراء الفرحة الكبرى كمن هدم جزءا من بناء ويسعى بستعة وحشية كي يأتي عليه تماما .. الضرب ، ذلك النوع من الضرب ، حين يتحول المضروب إلى انقراض إنسان مذعور ، انقراض تتألم . وبوعي تحس بنفسها وهي تتقوض إلى أسفل ، وبارادتها الخائفة تمنع نفسها من أن ترد ، ويتحول فيها الضارب إلى انقراض إنسان من نوع آخر . وكأنه إنسان يهدم إلى أعلى ، يسعدم الألم الذي يحدثه في ابن

جنسه ، ويستمتع بارادة ، وبارادة ايضا يقتل الاستجابة  
البشرية للالم في نفسه فلا يكف الا ببلوغ ضحيته أبشع  
درجات التهدم والتقوض وبلوغه هو أخس مراحل النشوة  
المجرمة التي لا يستطيعها من المخلوقات جميعها ولا يستمتع  
بها غير الانسان المنحط في الانسان .

٧

كنا قد وصلنا في رحلتنا الى حارة لا تسمح بمرور  
العربة رغم كل محاولات السائق لاستعراض براعته  
وارغامها على المرور ، فهيطننا ، وينسا وقف السائق يذب  
عن ، الاستيثن واجن ، جيوش الاطفال التي تجمعت  
عليها ، سرنا نحن الثلاثة . عبد الله ، بنفس قباقبه يحل  
الدوسيه وحقية الكشف ويرينا الطريق وشوقي بجواري،  
ومع كل خطوة يتضاعف شغفي وحب استطلاعي لرؤية  
هذا المارد الاسود الذي أرعب صفوة بأكملها من ابناء  
جيلنا الموعود ، تراه كيف يبدو وقد دالت دولته من زمن  
وضاق عليه المصير . شغف جعلني أسهو عن شوقي  
وأصمت مثلما صمت وارحب بمحاولات عبدالله للتكاسل  
حتى يوازينا ، ويلقي في اسماعنا بجملة أو بذكرى يحصلها  
لعباس محسود الزفلي كان واضحا أن تأففه من مهمة  
تشريك زميل له قد انتهى او كاد ، وكان واضحا ايضا انه



وقد ذهب الحرج عاد ليأخذ دوره المفضل ، دور العارف بكل شيء ، الحريص على أن يرينا انه ، حتى في العسكري الاسود ، يعرف ما لا نعرف ويتطوع ايضا بالنصيحة وتقديم المعلومات .

— دا شاف عز يا بيه ولا العز اللي شافه فاروق ..  
دا كان يدخل المحافظة ناقص يضربوا له نوبة سلام .. كان يقدر ضابط من الضباط بكلمه وهو قاعد .. كان ينقله على طول .. حد منا كان يسترجي يص له والا يهوب ناحيته .. دا مره والله العظيم وشرفك انت يا سعادة البيه وقع منه قدام عيني دي نص ريال ما رضي أبدا يوطي وبيحيه .. والله لما كنت تشوفه راكب جنب سواق رئيس الوزراء ، والا دولة البابا .... وكان جبار .. أعوذ بالله .. والله بعيني دي مرة شفته قفلوا عليه الاوضة اللي في الدور الثاني بتاع المحافظة اللي قصاد المكتب الطبي على طول هو وواحد من السياسيين وقعد يضرب فيه من صباحة ربنا والجدة يقول قاي ولا هو سائل فيه ولعناية ما روحنا احنا الساعة خمسة وشرفك سبناه يضرب فيه ..

— بطل كلام يا عبدالله .. البيت فين ؟ ..

كان القائل شوقي ، فوجئت ، وفوجيء عبدالله أيضا

بصوته يرتفع بالكلمات أعلى مما يجب بكثير ، صوت لا أذكر ان شوقي تحدث به امامي ابدا ، كان كلامه دائما يخرج وكأنه لا يريدك أن تحب انه قائله ، صوت جعل عبدالله يسكت في الحال وترتد الى وجهه تلك الصرامة النظامية التي كان كثيرا ما يرفعها امام الدكاترة الشبان .. ونظرت الى شوقي . لم يكن عابس الوجه او مقطب الملامح . كان يتسم بطريقة غريبة وكأنه يتسم بنصف وجهه الاسفل فقط ، ابتسامة من يستمع الى هاتف بعيد ، قلت له هاما :

— ايه .. افكرت حاجة ؟!

بنفس الابتسامة قال :

— أبدا .. ح افكر ايه ؟

وهست بالعودة لتأمل الدكاكين التي نمر بها ، والاطفال وهم يتجمعون حول موكنا . ولكنني بهت حين وجدت شوقي يتغلى فجأة عن وقاره التقليدي ويسك بذراعي ويجذبني بعصبة قوية ناحيته . وهمس في أذني كطفل قرر لامر ما ان يفضي الي بسر :

— أنت عارف مين اللي كان يضربه العسكري الاسود في المحافظة ده م الصبح للسر ؟ عارف مين ؟

والتقت أبصارنا لومضة ، كنت خمنت فيها الاجابة ،  
وبينما اشعة ضاحكة سعيدة تخرج من عينيه ، خرجت كلمة  
لتؤكد .

— كنت أنا ..

وأخر ما كنت أتوقعه حدث ، اذ مرة أخرى وجدته  
يترك يدي وجانبي ، ويسيل ناحية عبدالله ويقول :

— هيه .. وايه كمان يا عبدالله سعته عن عباس  
الزقلي ؟

ونظر عبدالله الى رئيسه نظرة تساؤل انقلب الى  
قلق وعدم ارتياح ، وسكت كأنما خوفا ..

وقال شوقي بلهفة وكأنما يستحته :

— ايه سعته كمان .. قول ..

وكانما أيقن عبدالله اخيرا أنها فرصة ، فاندفع  
يتحدث ويدلل على صدق احاديثه بأنه احيانا رأى بنفسه  
واحيانا أخرى جاءت الانباء من صاحب أو زميل .. كيف  
رآه رئيس وزراء ذلك الحين في المحافظة مرة واعجبه فضمه  
لحرسه ، وكيف أدرك من رؤيته له واحتكاكه به انه  
ضالته المنشودة ، وان له في القسوة وتحجر القلب باعا  
فأعطاه هدية للبوليس السياسي ، وكان عباس نعم الهدية ،  
فمن بين جميع الذين كان يعهد اليهم بضرب السياسيين

كان هو اكثرهم توحشا وتفايا لا في تنفيذ الاوامر فقط  
وانما في اختراع وسائل اقصى وانجع للتنفيذ . وكانوا  
يقولون انه حين يضرب يفقد وعيه وصوابه ويصبح  
كالسكران او المجنون الى درجة لم يكونوا يجروؤن على  
تركه وحده مع الضحايا فيلازمه في عملية الضرب رقيبان  
عملهما التدخل في الوقت المناسب لاتنزاع المتهم حتى لا  
يفتك به عباس ، وكانوا لا يستطيعون استخلاصه الا  
بصعوبة والا رغما عن أنفس عباس واحيانا بالكثير عليه  
وشل حركته وتكتيفه ، ولهذا كان الرقيبان يختاران دائما  
من عساكر اقوياء اشداء ، ورغم هذا ففي مرات كان يحدث  
ان يشور عباس عليهما ويأبى تسليم الضحية وينهال عليهما  
ضربا ان حاولا منعه .. وكان يأتي في الصباح مع الباشا  
في عربته وبعد انتهاء مهامه في سجن الاستئناف والمحافظة  
واحيانا نادرة في نفس غرفة رئيس البوليس السياسي كان  
يعود ليركب بجوار سائق عربة رئيس الوزراء اثناء موكب  
العودة . وقد تمنطق بالمدس الضخم ذي الكردون  
الاحمر . ويقولون انه كان في بيت رئيس الوزراء كأحد  
أهله ، يأكل هناك ، ويأخذ البقشيش من الهانم الكبيرة  
ويجود عليه الباشا بالمنح السخية وعلب السجائر الفاخرة .  
والعهدة على الرواة ولكنهم كانوا يقولون ان الباشا  
بالذات كان معجبا أشد الاعجاب بتواضع الفارم السقيم .

وكان يعتبره نموذجا للرجل الكامل ، وكثيرا ما كان يأمر  
باحضاره امام ضيوفه في الصالون . والاجانب منهم بصفة  
خاصة ، لفرجهم عليه ويجعله يقف يستعرض قوامه وبناءه  
وعضلاته امامهم ، فخورا به باعتباره اكتشافه الخاص، وكم  
من تأوهات كانت تصدر عن السيدات الزائرات لمركه .

والى هنا لا ادري لماذا سكت عبدالله عن حديثه ،  
ربما لادراكه انه تكلم اكثر مما يجب او فيما لا يجب ، ربما  
لفراغ ما في جعبته ، ربما للنظرة المختلسة التي القاها على  
الدكتور شوقي ورأى منها ان شغفه بالاستماع كان قد  
هبط الى درجة الانصراف عنه ، وعنا كلية ، وعاد مرة  
اخرى يتسم بنصف وجهه الاسفل ابتسامة من يحاول  
الانصات الى هاتف بعيد .



كان الباب الذي أوقفنا عنده عبدالله التومرجي لا  
يكن ابدا ان يمت لبنت ، فهو لا يشبه بيوت المدينة  
الفقيرة ، وكذلك لم يكن كوخا او دارا من دور القرى  
المبنية بالطين . لكأنه الحلقة المفقودة بين الكوخ والبيت ،  
ومنازل القرية والمدينة ، ولم تكن قد وصلنا اليه الا بقطع  
عدد لا يحصى من الازقة والحواري ، بعضها تهبط اليه  
بسلام ، وبعضها تصله بعد ان تجتاز اكواما عالية من  
تراب هي في الحقيقة اطلال بيوت تهدمت وسقطت ولم  
تجد أحدا يزيل أنقاضها وبقاياها فتحولت الى تلال تسد  
حارة او تصنع هضبة بين شارعين .

دق عبدالله الباب ، وطال دقه دون أن نظفر بجواب  
حتى خيل الينا ان لا احد هناك . . . وبدأنا نشك ان يكون  
هو البيت المقصود ، ولكن عبدالله راح يحكي لنا انه لا

يسكن ان يكون قد أخطأ ، وزيادة في التأكيد مضى يدق بجصاع يده . وخيل البنا أخيراً اننا نسمع اصواتاً مختلفة في الداخل . وارتفع دق عبدالله حتى وجدنا الباب تحت تأثير الدق ينهار وينفتح من تلقاء نفسه . ومن الباب المفتوح رأينا صالة واسعة ، كنفاء دوار عمدة اقيم في قلب القاهرة ، صالة خالية من كل شيء الا من كنبه بلدي بلا ( شلته ) او مساند ، تحتل احد الاركان . وفي وسط الصالة تقريباً ( ثلثت ) غسيل مقلوب تقف عليه دجاجة تنقب بمنقارها في التراب والطين القليل اللاصق بقاعه عليها تظفر بعذاء فلا يفعل تقييها الا ان يجعل منقارها يرتطم بالثشت الرنان في دقات منتظمة مملة . تصاعد رفيعة ملحمة رنانة لا تفعل أكثر من أن تزيد الكآبة في الصالة الواسعة الخالية .

لم يبق الحال هكذا ولا بقينا واقفين مترددين بين العودة والبقاء طويلاً ، فقد فتح باب جانبي ، وخرجت منه امرأة ، نحيفة قصيرة بيضاء ذات عيون سود غائرة كعيون نساء شمال الدلتا ومنطقة البحيرات وان كان ألوشم المثلث تحت شفتها السفلى على ذقنها علامة صعيدية أكيدة . عيون فيها بريق يفهمه الذكر وحده ، ولكنها هزيلة شاحبة بالتأكيد لا تزيد نسبة الهيموجلوبين في دمعها عن الربع . وفي وجهها ( قوبة ) في حجم الريال ، وكانت حافية

قدمها صغيرتان كاقدام الاطفال او الصينيات ، ترتدي ، في عز الصيف ، جلباباً منزلياً كزي الفلاحات من الكستور ، جلباباً مهنراً يظهر قميص نوم أصفر نظيفاً ، خرجت من الحجرة مندفعة ، وكأنها هاربة من شر ، وحين لمحت الباب الخارجي مفتوحاً ورأنا ، ثلاثة رجال طوال يسدون فتحته شهقت ، وفي الحال اختفت داخل حجرة أخرى ، وتركنا ، واقفين ، تعجب ونقلب الانظار في الصالة ، بينما الدجاجة التي كان قد افزعها خروج المرأة ما لبثت ان عادت بعد اختفائها تعتلي الطشت وعاد منقارها يصدر ذلك الدق المنتظم الرنان الكتيب .

وبزهق رفع عبدالله كفه واهوى بها على الباب المفتوح في ضربة قاصمة انزعجت لها الدجاجة وثبتت شمل السكون ، وارتفع صوته فارغ الصبر مزعجاً هو الآخر ، يقول :

— يا لى هنا

وفتح الباب ، وخرجت المرأة الصغيرة ، وقد ارتدت ثوباً مهلهلاً اسود ، بينما لفت رأسها بثوبها الكستور الذي كانت ترتديه ، ومضت ناحيتنا ، تعثر في مشيتها وتقول :

— اتفضلوا

وباختصار ، وقبل ان تلتفت او تشرع في الاندحار .



كان عبدالله قد شرح لها السبب في حضورنا ، ولدهشتي  
وجدته قد ضمني الى البعثة واخذ يتحدث عنا باعتبارنا  
( قومسيون طبي المحافظة ) وقد جاء ( بكامل هيئته ) .

واستغربت ان تفهم المرأة كل شيء لاول وهلة ، لا  
بد اننا لم نكن أول ( قومسيون ) ندخل البيت وان بدا  
واضحا اننا آخرهم .

وحين انتهى من اخبارها لم تفعل اكثر من انها امرقت  
مستسلمة ومرة اخرى قالت :

— اتفضلوا

— اتني مراته ؟

— أيوه يا سيدي

— وهو فمين ؟

— نايم جوه ..

وللمرة الثالثة قالت :

— اتفضلوا ..

وبلهجة أمرة قال عبدالله :

— قدام البهوات .. ورصم السكة ..

ولكنها بدلا من هذا وقتت لا تعرف ماذا تقول ،

وأخيرا قالت مشيرة الى الكنبه في ركن الصالة :

— بس والنبي تستريحوا هنا دقيقة .. دقيقة واحدة  
ولم نعرف لطلبها هذا سببا . ومع ذلك وجدنا أنفسنا  
نأخذ طريقا الى ركن الكنبه ، وبينما قررت أن أخضع  
للامر الواقع وأجلس ، أثر شوقي أن يظل واقفا ، وبالتالي  
أجبر عبدالله أن يظل كذلك .

وكانت المرأة قد تركتنا ودخلت الباب الاول . وسعناها  
تحدث دون أن يجيبها صوت ثم رأيناها تخرج وتختفي  
في الحجرة الثانية وتحضر شيئا تواريه في ثوبها عنا ، وتدخل  
به نفس الباب الاول ، وتظل خارجة داخله ونحن صامتون  
تابعها بأنظارنا ، والسكون مخيم لا يقطعه سوى دقات  
الدجاجة المنتظمة على صفيح ( الطشت ) وقد أصبح لا  
يزعجها أو يوقفها عن الدق دخول أو خروج .

وأخيرا بدا أن المرأة قد انتهت من رحلاتها . اذ جاءت  
ووقفت قريبا منا . وقال عبدالله بتأنيب شديد :

— مش خلاص .. الدكاتره مستعجلين .. احنا ورانا  
قومسيونات تانية كثير ..

وأخفت فيها في جلبابها الطرحة وهي تقول :

— أيوه .. حاضر .. دقيقة واحدة بس ..

واقترع عبدالله :

— هي دقيقتكم ايه .. ساعة ١٩ والله باينها يوم :

وظلت المرأة واقفة لا تتحرك ولا تجيب ، ثم بدا وكأن  
هذه الوقفة القصيرة قد أزهقتها إذا ما لبثت أن سحبت  
جسدها الى أسفل وجلست القرفصاء مسندة ظهرها الى  
الحائط .

٩

لم تكن نعرف لهذا الانتظار كله سببا واضحا ، ولكن  
لا بد كان له سبب ، والمخرج في الامر كان هو الصمت  
الذي شملنا وامتد حتى ابتلع دقات الدجاجة وأنسانا ايها  
ولامر ما أحسست وكأنني مسئول عما نحن فيه من حرج  
وعن ازالة هذا الصمت الكتيب . وهكذا بدأت أتحدث  
الى الزوجة وأسألها . حديثا لم أكن أقدر له أكثر من  
دقائق قليلة اذ كانت لهفتي الاساسة أن أرى ( العسكري  
الاسود ) ورغم أنها ، بردها على أسئتي ، بدأت تجيني  
اجابات مقتضبة لا تنطقها الا بعد تفرس خجل سريع في  
ملامحي ونواياي ، الا أن اجابتها تلك بدأت تسترعي انتباهي  
وليس انتباهي وحدي ، شوقي الذي كنت أدرك رغم انعدام  
الكلمات بيننا أن لهفته لرؤية عباس لا تقل عن لهفتي ،  
والذي وضع ضيقه من أول لحظة بأسئتي واضاعة الوقت  
بفتح مجال للحديث ، بدأ هو الآخر ينتبه ، ويكاد يفرط

متابعته يوم بالقاء أسئلة أخرى ، لولا أنه كان يتراجع قبل نطقها ويحجم . وهكذا امتدت الدقائق الى ربع ساعة والى مرحلة بدأت الاسئلة فيها تغلب المواجه على ( نور ) الزوجة فتبكي وتدمع وهي تجيب . ولكني ظللت أتابع حتى تعدى الحديث مرحلة البكاء الى مرحلة بدأت تجيب فيها الزوجة بصراحة وصدق وقاب كأننا تريد فتحه وأفرغه وقد ناء بما يحويه ، أو ربما اعتقدت أنها ، بالصراحة ، قد تخفف الحكم الذي نوثك أن تصدره على زوجها .

وأصبح شعفي باستخلاص كل ما يمكن استخلاصه من ( نور ) يكاد يطغى على شعفي لرؤية زوجها . بل طغى ، وأيضا لم أكن وحدي . وجدنا أنفسنا نحن الثلاثة ننسى اللهفة والوقت والرجل الراقد في الحجرة ونستمع اليها . وكأننا عداها هي الاخرى اهتمامنا ونست الحاضر ، والراقد ، وراحت تعيش بكيانها كله فيما كان .

والقصة كما استخلصتها من نور الزوجة تختلف بطبيعة الحال كثيرا عن قصة العسكري الاسود كما تطوع بها عبدالله وعن صورته كما رآها شوقي وكل من كان في السجن وقدر له أن يقع تحت طائلته . قصة الفلاح حين يشب قويا أقوى وأصلب عودا من كل أقرانه فتصبح له في البلدة شهرة ، ويصبح لقوته سلطان ومستلزمات ، ليس أقلها

جلباب من حرير . و ( لاسة ) من السكروته ، ولقم يخطر به ساعة العصر ويقتحم به السوق ، ويتربع به في مجالس الرجال، ويزغل به وب نفسه أنظار البنات والمطلقات وأنظارها هي بالذات ، بنت عمه وأحلى البنات . قصة الفتونة والمراهنات على حل أكياس القطن وأجولة الكيماوي والمعارك والنبات والخناقات، ومع هذا فما كان أسعدها - كما تقول - بالزواج به ، واستعدادها ، لا لكي تنظره أعوام ( الجهادية ) الخمسة وانما العمر كله ولكنه جاء بعد مدة الجيش وأخذها . وسكن بها في مصر . في نفس هذا البيت الذي لم يغيره الزمن . واشتغل في البوليس . ولم ترزق منه صحيح بأطفال . مشكلة كانت تلح عليه وتضايقه . ولكن فرحتها به كانت على الدوام أكبر من أي ضحك أو قسوة أو انعدام خلف . أخذها للدكتوراة مرة ولم يجد الطبيب فيها عيبا وقال له ابعث عن نفسك أنت . ولكنه كان دائما مشغولا بالبحث عن السلطة والتسلط . دائم المشاحنات مع رؤسائه . دائم الثورة على وضعه وزملائه . حتى قدر له في النهاية أن يختاره الباشا ويسبك بهذه الوظيفة التي بدا وكأنها باب السعد والهناء . فسا من يوم يعود فيه الى البيت ألا ومعه سبت خضار ولحمة ، وضحك يجعلل في الصلاة الى ساعة النوم . والبيت يزدحم عليهم بالناس والزوار والسهرات التي تمتد الى ما بعد منتصف الليل . و ( الحنة ) كلها قد عرفت سر الوظيفة الجديدة . وكثيرون

وأوه في جلسته الفاخرة أمام الباشا ، بل لم تلبث عربة الباشا نفسه أن بدأت توصله الى الحي ، ويراها الجيران رأي العين ، مجموعا فيها ، حتى أم علي ( الحسادة ) تراه وتأتي لتصف لها ما رأيته والشهقات التي كانت تتبعه أينما سارت به العربة وأينما وضع قدمه ، وتطلب منها أن ترقيه من عيون نساء الحي ورجاله ، فترقيه نور أول ما ترقيه من أم علي ، وتقوم من الفجر لتدعو وتطلب من الله أن يقيهم شر الناس ويديم عليهم السر ، والناس في بيتهم الداخل لا يعرف الخارج ، ومع الخارج والداخل والزائر والقريب والغريب عرائض وشكاوى وطلبات وطلبات وترقيات بل ، وبنا للسخرية ، شفاعات ورجوات لعباس ، كي يتوسط لدى الباشا للافراج عن معتقلين ومتهمين ، فكان يقبل ويخدم الكل ما عدا طلبات الافراج التي كان يضيق بها أشد الضيق ويرجر أصحابها وأحيانا يبلغ عنهم البوليس السياسي ، حالة واحدة فقط هي التي قبل أن يتوسط فيها حين فوجئوا بعدة بلدهم بنفسه ، اليه الرسي ، أحصدبك مروان . ومعه والده المسن ووفد ضخم من عائلة مروان يطرق باب بيتهم ، نفس هذا البيت ، وشرب قهوتهم وضابط عباس بقوله : يا فندم ، وأحيانا يقول البركة فيك يا عباس أفندي . وأحيانا أخرى يا حضرة الظابط ، بل ويصل الامر الى درجة يقبل فيها يده بعينها رأته نور من خلال الباب الموارب تثبت بيد عباس وينحني عليها

ويقسم يمين الحرام أن يقلبها فلا يملك عباس الا ان يوافق والا بأن يعد أنه سينذل كل ما في استطاعته لرجاء دونة الباشا والافراج عن بسويوني . شقيق العمدة ، الطالب المعتقل وينجح في الافراج عنه ويهديه اليه خمسين جنيها وخروفا ، نقود ، ما أكثر ما دخل جيبه من النقود . مع كل عريضة تندس اليد في جيبه وترك ما فيه القسمة . ويصرف عباس ويعزق ولا يتحرك الا في جمع من الحي والبلديات . على القهوة يحيطونه ويؤنسونه . وفي البيت . وفي نفس تلك الصالة الواسعة يتعقد مجلسهم كل ليلة . أيام حافلة عامرة وان كان كل ما يأتيهم فيها كان يذهب ويتبخر ولا يبقى منه . ولم يبق من أيام العز كلها . سوى مائتي جنيه في صندوق التوفير بالبريد . أيام عامرة ولكنها قليلة . ولا نستطيع نور رغم الاسئلة الملحة ومحاولات التذكير أن تحدد بالضبط ماذا حدث ، أو متى ، كل ما لاحظته أول الامر ان عباس كان حين يذهب عنه الاصدقاء والزوار ويصبح البيت خاليا الا منه ومنها . يذهب عنه المرح والضحك الذي كان غارقا فيه . ويستمر على جلسته المتربعة منكس الرأس الى أسفل . سادرا في حزن مفاجئ . لا تعرف سببه ، يبقى هكذا بالساعة والساعتين ، لا يتحرك ، ولا يحدثها ولا يغير من وضعه ، انما كان يحدث بين كل حين طويل وحين . أن يرفع رأسه فجأة مستلا من صدره نهاية عميقة قائلا .



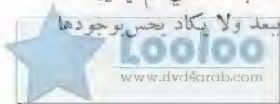
ايه .. حكم . ثم يعود رأسه يسقط ويعود الى الحزن  
 الشارد الذي كان فيه . حتى اذا طال الامر وواتها الجرأة  
 على سؤاله عما به . لم تغفر منه بجواب . أو اذا رفع  
 رأسه وأجاب لا يقول أكثر . من معلى . كله منه .. بكره  
 تعدل . كانت واثقة أن ليس في الامر زوجة أخرى أو شاغل  
 من شواغل المعيشة ولهذا كانت لا تلج . وتسكت . خاصة  
 والحالة لا تحدث الا نادرا وكل يضع ليالي مرة . ولكنها ما  
 لبثت ان تكاثرت حتى أصبحت تكرر كل ليلة تقريبا وتطول ،  
 ويطول غياب عباس في (الشغل) ويعود اذا غاب مضجعا  
 مطحونا كالمضروب علة . ينام بغير عشاء ، واذا تعشى  
 استيقظت على صوته المخنوق يصرخ من كابوس ، ثم بدأت  
 محنة الايفون ، كانت تعلم انه يأخذ ، ولكنه كان يفعل  
 هذا للمزاج ليس الا ، بتوالي النوبات والاستغراق في  
 ( الشغل ) تعلق به وأدمن فيه وأصبح يأخذه في كل وقت ،  
 قبل النوم ، وفي منتصف الليل وحتى في الصباح على  
 الرق ، واذا فتحت فيها أو اعترضت رماها بنظرة تخلخل  
 مفاصلها وتدفعها الى ابتلاع الريق والكلمات وتغلي وهي  
 صامته وتمزق نفسها من الخوف منه وعليه . تضع أمامه  
 الطعام وتعود لتحمله كما وضعت ، وينام ، أصبح لا يأتي  
 الى البيت الا لكي ينام ، ولا يحتمل أن يبقى فيه وحده  
 مستيقظا ، ينام ويطلب منها أن تصحيه في ساعة مبكرة

فاذا جاء الصباح ونادته ليستيقظ زجرها ، فاذا مضت في  
 محاولتها يكاد يقتلها ليستها وليستمر نائما . وجاء عليه  
 اليوم الذي لم يذهب فيه الى القهوة واذا حضر أصحابه  
 وسألوا عنه أمرها أن توزعهم وتدعي لهم أنه غير موجود .  
 كانت تقول لنفسها كلما ووجهت بجديد ان هي الا  
 عوارض لن تستمر ، وأنه لن يلبث أن يعود الى نفسه  
 والى عباس الذي كانه زمان ولكن كل يوم يقبل كان  
 يجيء معه بتغيير ، الى أسوأ ، حتى ليصبح ينتهي أملها  
 أن يعود مثل الامس فقط ، بل حين يئست من هذا أيضا  
 أصبح كل ما تطلبه من الله أن يبقى على ما انتهى اليه  
 هو ذلك الشخص المكسر الملامح ، الغاضب دائما ،  
 النقي الخلق الذي يشور لأتفه سبب ، وبلا سبب .  
 والذي لم يعد ينفق على البيت أو عليها ، ورغم كل ما  
 يكسبه فمحفظته تحت المخذة دائما خاوية وكأنه يلقي بها  
 يكسب في بلاعة لا تسد ، شخص سائر في طريق لا تدري  
 الى أين ولكنه يبعد عنها ، وعن الناس حتى أصبح لا  
 يلتقي السلام على أحد . وكان السلام مشقة ، ويتحاشى  
 الناس وكأنهم أعداء ، له كل يوم واقعة شتم أو سب أو  
 تناسك وضرب ، مع الجار وصبي البقال وراكب  
 السكيت اذا دق الجرس ، حتى كاد يخاصم الناس  
 كلهم ، وأجسع الكل على أن يسلمه غيرة . فاذا

ضاق بنفسه وحدثه مرة وأرسل في طلب أصدقاء زمان ، وجاءوا ، يأتون مكرهين ، ويجلسون مكرهين ، ويستمعون الى حديثه الذي يفرضه عليهم فرضا ، حديث مسلوء بمواقف هو دائما فيها البطل وبقتصص لا بد كسر فيها ذراع واحد من السياسة بضربة أو هشم أنسان آخر ببونية ، وماذا قال له دولة الباشا وماذا عاد ، حتى اذا لمح أي عطف في ملامح سامع ، أو بدت كلمة نقد لما تفعله الحكومة اندفع يتحدث ، بفظاظة ، عن الحكومة ، ودولة الباشا ، والعهد ، وكأنه أحد أصحابه والقائمين به ، وكثيرا ما يقول : احنا علنا واحنا كان لازم نسوي أو يصف السياسيين والمعارضين ، بقوله : دول أعداءنا لا تستمر الجلسة طويلا اذ لا يلبث أفرادها أن يتسللوا واحدا وراء الآخر متذرعين بحجج ، واهية في معظمها ، ويظل بعد ذهابهم يلعنهم ويلعن الحي والناس ، يلعنهم لنفسه وهو يحدث نفسه . وحديثه لنفسه كان طارئا أول الامر ولكنه لم يلبث أن أصبح عادة تكون في الصالة أو الحجرة الاخرى فتسمعه يتحدث أو يزغق أو يشتم أو يفرز زفرة حارة ويتنهد قائلا بأعلى صوته : آه ... آه ... آيوه ... كله منه ... حكم ... ملعون أبو الدنيا ... ملعون أبوهي كلك واحد واحد ...

وأبضا لا تعرف نور كيف أو متى جاء اليوم الذي

فطنت الى الحقيقة التي دوخها اكتشافها .. أن عباس لم يعد عباس .. لقد أصبح رجلا آخر لم تره أبدا ولم تعرفه .. رجلا آخر بطباع أخرى ومزاج آخر .. غريبا .. لا تحس أبدا أنه زوجها الذي تزوجته .. ومن الواضح أنه هو أيضا وقد عادى كل من كان يعرفهم وتغير ولم يكن قد تبقى سواها بجانبه ، كان واضحا أنه بدأ هو الآخر يستغربها ، وينكرها ، ولا يرى لها شعورا ولا يصح من أين تنفق أو كيف تدبر الامور .. أم علي الحسادة تقول لها أن الاقيون قد غيره ولكنها هي العلية الخبيرة به تعرف أن الاقيون ، كضيق خلقه ، كشروده وتغوره من الناس ، عرض وليس سببا ، السبب أكبر أو أبعد من أن تستطيع وحدها ادراكه .. لقد كانوا يحيون ككل خلق الله في أمان الله فماذا حدث . قالت لنفسها انها العين ، وعين أم علي بالذات ، وأخذت من ( ساليما ) ورقته وبخرت وقالت انه عمل ، وذهب لشيوخ العسولات ودفعت الأجر وذبحت الديك الاسود وجربت كل علاج ودواء .. وحاله لا تسير الا الى أسوأ . خاصة هجره لها في الفراش ذلك الذي طال وطال حتى اعتقدت أنه ممنوع عليها بسحر ، التمسث فكه ، وفكته ، وظل مع هذا ذلك الشخص الغريب الذي لولا الشبه الذي لم يتغير لما عرفته ، وظل هو يبعد عنها ويبعد ولا يكاد يحس بوجودها أو يأبه له .



وما كان أسودها من ليلة قررت فيها أن تعتد على نفسها وتنفض أقنعة الخجل وتواجهه . ليتها ما فعلت . فلقد ظل يستمع صامتا حتى أفرغت كل ما عندها ولم يبق سوى الدموع فبكّت . وبدلا من عباس رجلها وابن عمها الذي تعرفه ، أطبق عليها وحش غرس أظفار في لحيها ، مسكا إياها بكلمات يديه مجييا على ما قالت بأخص وأقبح ألفاظ سمعتها في حياتها ، ألفاظ ما خرجت من فمه قبل ليلتها قط وما كانت تعتقد أن باستطاعته أن يعرفها أو ينطقها . ولا تدري ماذا منعه من ضربها وسحقها أو قتلها ، فالسبب أوهى وأقل لم يكن قد ترك انسانا يعرفه دون أن يد عليه يده ، ماذا أبقى تلك اليد مغروسة الأظفار في لحم ذراعها لا ترتفع وتضعها ولا تهوي بقبضتها الحديدية عليها وتحطمها ؟ انها لا تعرف ولكنها تؤمن عن يقين أنها قد كتب لها عمر جديد .

وكانما كان ينتظر ليلة كذلك لينفث عيابه الى آخر مدى ، وليصل الى درجة تدفعها للتفكير في الهرب والهيام على وجهها في الطرقات ، اذ ما كان هناك حل آخر ، فلو غضبت وسافرت الى القرية فلن يكون عقابها أقل من القتل . فكرت ودبرت وأخذت تراقبه لكي تحدد الساعة وتنتقلق كان عباس يبدو كمن جن ، يصحو صارخا مروعيا اذا نام ، واذا انفرد بنفسه تجده فجأة قد انهال

عليها ، على نفسه ، شتائم وسباب ، نفس شتائمه ذات الألفاظ الداعرة ، بل رأته مرة ينهي شتائمه لنفسه بصفعة من يده يهوي بها على وجهه ، وقررت يومها أن لا بد من التعجيل بالفرار .

غير أن الأيام كانت تدبر شيئا آخر . كان عباس قد عاد من العمل مبكرا على غير العادة ، في الضحى ، ونام ، وظل نائما الى اليوم التالي ، وقبل أن يرقد سمعته يقول لها شيئا لم تفهمه ، وخافت أن تستعيده ما قال ، وفي اثناء نومه جاءت أم ثابت والحاجة كريمة وأم علي وأخبرتها ان الباشا الذي يعسل معه عباس ترك الكرسي وأنهم سيعملون انتخابات ليحيثوا بباشا آخر . وحين استيقظ عباس حاولت أن تفتح باب الحديث لكي تستقيم اخباره ولكنه كان عازفا عن الحديث : ذوب قطعة المر وتجرعها وأعطاها ورقة ووصف لها كيف تذهب بها ، وعاد للنوم .

كانت ورقة طلب اجازة مرضية ، الورقة الاولى من عشرات دمغات لم تكن تدري أنها ستوالى بعدها ولا تكف عن التوالي .

كانت ( نور ) لا تزال جلسة القرفصاء قريبا من

الكنبة ، وصوتها الصيدي الناعم المحشرج يخرج على دفعات متقطعة يحكي ويكاد يهز المكان بحرقته وصدق نبراته ، وشوقي قد أرغمه تتبعه المصوم على الجلوس على طرف الكنبة والهبوط برأسه قريبا من رأس نور حتى لا تفوته الكلمة واحجامه قد ذهب وأصبح يسع . ويشمل المرأة بنظرة نافذة كابر بذل النخاع تحاول استخراج كل ما لا تستطيع المرأة قوله أو تملك القدرة على التعبير عنه ، وبين الحين والحين ينطلق منه السؤال كالقذيفة التي لا يريدنا أن تخطئ . والحديث استبد حتى بعد الله التومرحي نفسه الى درجة جعلته يترك الرسميات جانبا ، ويجلس القرفصاء أيضا بجوار المرأة ، يسع ، وبين الحين والحين يهش بيده ، دون أن يلتفت أو ينظر ، يزجر الدجاجة ويخفيها في محاولات كثيرة فاشلة لأقصائها عن المكان تماما .

وقبل أن تكتمل القصة ونعرف منها كيف مرض مرضه الأخير ، وماذا بالضبط حدث له . فوجئنا بشيء روينا حقا ، وأنا لا أذكر أنني من وقت أن غادرت مرحلة الطفولة وكفرت بالجن والعفاريت والاماكن المسكونة لا أذكر أنني خفت خوفا حقيقيا ، كثيرا ما اضطربت مثلا ، أو دق قلبي بانفعال خائف ولكن لم يحدث أبدا أن جزعرت وذعرت . ولكنني لحظتها خفت ، بل بلغ رعيي حدا كاد

يدفعني لترك المكان والجري بكل قواي . ما فوجئنا به كان صرخة ، أو هكذا ظنناها أول الأمر ، ولكنها لم تلبث أن طالت ، وتغير نوعها وتحولت الى ما يشبه العواء ، ولو كنا في غابة أو حقل لما روينا ولحسبنا العواء لذئب . ولكننا كنا في قلب القاهرة ، وداخل بيت ، والعواء عواء ذئب ولكنك تدرك أنه صادر عن رجل ، وعن رجل لا يسرح أو يحاول اخافتك ولكنه يعوي حقيقة ويعبر بعوائه عن أشياء مكتومة داخله تنقطع نفسه وهو يتزعمها على هيئة عواء متصل مستمر لا يمكن أن تفرق بينه وبين العواء الحقيقي لذئب .

ولم أكن وحدي الذي خفت ، حين عدت ألتقط أنفاسي وجدت أنني كنت دون وعي قد وقعت ، ووجدت أن الآخرين جميعا قد وقفوا أعينهم مفتحة ، وفي حدقاتهم خوف أو وجل وكان العواء صرخة طفل رضيع هي أمه . . وكانت المرأة أول من تحرك ، تركنسا واقفين مشلولين وانددت الى باب الحجرة التي تصاعد منها العواء بلا خوف أو وجل وكان العواء صرخة طفل رضيع هي أمه . . وما أن دخلت حتى تصاعد الصوت مرة أخرى ولكنه لم يستمر ، وما لبث أن انقطع وكأنه قطم وارتفع على أثره نجيب . . لولا خشوته القليلة لحسبه نجيب طفل .



وقال عبدالله في رجاء يكاد يتحول الى بكاء :

— ما نخليها يا دكتور للحكيمياشي .. اعمل معروف \*

ولمحت شوقي أصفر ، زائغ العينين ، يتطلع الى الباب ، ثم الى عبد الله ، والي ، مترددا .

في تلك اللحظة بالذات كنت أمر بحالة الخجل الذي يعقب خوفنا من شيء ، خجل لأننا ونحن رجال قد خفنا ، ذلك الخجل الذي يدفع الانسان في الحال لتحدي ما يخيفه والاستهانة به واقتحامه . ويبدو أن شوقي كان قرأ في عيني ما جعله يحاول باستماتة أن يؤكد لي أنه هو الآخر غير خائف ، وأنا لا بد أن نمضي في المهمة الى نهايتها .

وهكذا دخلنا الحجرة .

كان الوقت قد تأخر ، لا تعرف ان كانت الشمس قد غابت أم لا تزال على وشك المغيب ، والحجرة لم يكن يضيئها غير نافذة صغيرة جدا قريبة من السقف كنوافذ الزنازين والسجون ، وكدنا لا نرى شيئا لحظة دخولنا ، بدت لنا الحجرة كمخزن مملوء بظلام قديم مهمل ، أذانا فقط هي التي استطاعت أن تميز وتسمع وتذكر أن شهقات

مكتومة تتردد في الجو المشبع بزفرات مبللة بالدموع .  
لحظات قليلة هي التي استغرقتها المفاجأة ، بعدها وجدنا أن باستطاعتنا أن نرى ، ونرى بسهولة وكان عيوننا قد بالغت في التقدير أو أعصاها مجرد الدخول .  
كانت الحجرة واسعة ، أشبه بالصالة الثانية ، وأثاثها قليل ، ( حصيرة ) كبيرة تغطي الارض ودولاب عرس قديم طال استعماله في الركن ، والي اليمين سرير ، بأربعة عدادن ، فوقه مرتبة ممزقة الكيس وقطنها ، أسود .  
ظاهر وكذلك المخدات والرائحة مقبضة ، تخاف معها أن تنفس ، قتلته .

كان عباس الزنكلي يرقد نصف رقدة على الفراش ، والزوجة تسنده ، وكان يبدو كمن كف لتوه عن البكاء .  
ومن الصعب أن أحاول وصف الحالة التي كان عليها .  
فمفروض أن تبدو على المريض آيات الضعف والهزال وأن تتغير سحته وتقلب ، ذلك التغير الذي يجعلنا ندرك أن الشخص مريض . من هذه الوجهة كانت تبدو على عباس آيات المرض ، لكن لم تكن هذه الآيات أخطر ما به . أخطر ما به كان في عينية . أو تحديد أكثر في نظراته ، فمفروض أن الجسد حين يضعف أو يمرض ويشحب جلده ولونه تترق عيون صاحبه وتتوهج وكان شحوب العينين يبدو على هيئة برق . والجاني مثلا لهم

نظراتهم وكان الشخص حين يجن تجن عيناه أيضا ، كما يخرف بتفكيره يخرف بنظراته فتصبح وكان لا معنى لها ولا ارادة وراءها . نظرات عباس لم تكن مريضة أو متوهجة أو مجنونة ، كانت ساكنة سكونا مستمرا مستبنا كسكون الموت ، وشاملة أيضا ، فيها ذلك الشسول الذي تحه المحيط حين تقف على شاطئ له ولا تستطيع لفطر اتساعه وامتداده أن تتصور أن له شاطئا آخر ، في الحقيقة كان سكوتها المستمر وشوئها وامتدادها يجعل النظرات كسطح بحر لا يتحرك وكأننا هو موجود في عالم مفرغ من الهواء ، وبلا شروق أو غروب ، وبلا بداية أو نهاية أو زمن .

دخلنا وفوجئنا بعبد الله يقول بلا مناسبة وبصوت متهدج : سلام عليكم ، موجها تحيته الى عباس ، ولا أعرف ان كان الأخير قد شعر بنا ويدخلنا أو لم يشعر ، اذ حتى السلام الذي ألقاه عبدالله لم يكلف نفسه مشقة الرد عليه .

ومن لحظة أن دخلنا وبدأت أعتاد المكان وجدت أن اهتمامي لم يعد مركزا على عباس وحالته فقط ، أصبح اهتمامي موزعا بينه وبين شوقي . كان شوقي أثناء سماعه لنور وسؤالها ، وبعدما سمع ما سمع ، وقبل أن

يدخل الحجرة ، وحين دخل وأصبح يضمه مكان واحد مع عباس باستطاعته أن يراه فيه رأي العين ويتثبت من وجوده ، كان قد اتابته حالة لم اره عليها من قبل ، حالة ما كدت ألحظها حتى خيل الي ، وكأننا أضاء النور فجأة في عقلي ، وكأننا بدأت أعني بشيء كنت أراه ولقسطه تمودي رؤيته لم أعد أراه . تماما مثلما لا تستطيع أن تدرك أن شخصا ما كان تعا طول الوقت الا حين تراه فجأة ، يتسم ، او انه كان راضيا الا حين تراه فجأة ، يغضب . هكذا اتابت شوقي تلك الحالة ، حين بدأت أشياء في نفسه تصطرع وتعبير ملامحه وعضلات وجهه عن صراعها ، حين بدأت افعالاته تلون وتشكل ويخاف ويدهش ويرغب ويستطلع وتردد . حين أسقط فجأة بسسته الخالدة فبدا كما لو كان قد أسقط قناعا كان يحجب به نفسه غني وحتى عن نفسه حين لمحت وكان الحياة قد بدأت تندفق بسرعة وقوة واندفاع الى كيانها ، وأدركت لحظتها فقط ، مذهولا ، أنني كنت خلال السنين الطويلة التي صاحبت فيها بعد خروجه من السجن ، كنت أصاحب شوقي آخر دون أن أدري ، وأن ظنوني كانت على حق ، وتخميناتي عنه كانت صحيحة ، اذ في تلك اللحظة بدا وكأن شوقي القديم ، شوقي الذي كنت أبحث عنه بلا جدوى في شوقي ، شوقي الشائر الحي قد دبت فيه الحياة من

جديد ، وصحا ، وكأنه كان ميتا محنطا في مكان ما من جسده ، في ابتسامته المرسومة ربما تلك الابتسامة التي أدركت لحظتها أيضا أنها كانت ابتسامة ميت على وجه حي ، ابتسامة تحس اذا دقت فيها التأمل والنظر أنها البقية الباقية من شخص مات وشبع موتا ، ابتسامة ذكرتني نظرة عباس الزنطلي بها وعرفت منها سر الاحساس الذي كان يتأبني كلما رأيتهما . اذ أدركت أنني كنت وكأني أطلع الى سطح بحر هاند شامل لا تتحرك فيه موجة ولا تصدر عنه نائمة وكأنه البحر اذا وجد في عالم مفرغ من الهواء . حالة اتاب شوقي وأحدثت في عقلي دوامات أفكار وتأملات وأحاسيس ، ولكني رغم كل ما كان يدور في عقلي وجدت نفسي على وشك أن أحس بفرحة طاغية ، اذ تصورت أنه قد آن الأوان لينفض شوقي عن نفسه شخصية الكائن المذعور المعقور ، وأنه لا بد في طريقه الى العودة ، لا بد أنه عائد ، ولا بد أنني لن أغادر الحجرة الا وفي صحبتي شوقي الذي فشلت جهودي لاعادة الروح اليه ، ويئت ولم يعد في جبتي أي أمل .

وبشغف متزايد مضاعف رحلت أتابع ما يحدث .  
والآن وأنا أحاول تسجيل ما دار واستعادة الصورة وإبقاها بطيئة أتفحصها على مهل وكما أريد ، الآن باستطاعتي التحكم في الزمن وتتابع الصور ، ساعتها لم

أكن في وضع أنا فيه المسيطر ، كانت الاشياء تحدث لي لمحات سريعة بالكاد أستطيع متابعتها أو تبينها ، بالكاد أملك القدرة على استرجاع ما سبق اللحظة أو الحركة من تاريخ ، فالمهم في مواقف كذلك ليس فقط أن تتابع ما يدور فيها ولكن أن تتابعه وأنت فاهم مدرك لكل ما سبقه ، وأنت حافظ لتاريخ حياة الموقف اذ هو الذي من خلاله تستطيع أن تفرق بين المهم وغير المهم ، بين الكلمة الواحدة حين يصبح لها قوة الحدث الهائل ، وبين الحدث الظاهر الهائل حين لا يستحق الذكر .

بخطوات يعرف صاحبها لماذا يخطوها ، لا يبدو اضطراب أو وجل فيها ، تقدم شوقي من فراش عباس ، وبعيون كأنها انقطع عنها النظر من سنين ثم استعادت القدرة عليه فجأة شله بنظرة قوية فاحصة ، لا ذعر فيها ، كل ما فيها من اهتزاز مرجعه ربما لوجودي ووجود عبدالله ، نظرة لا كره فيها ولا حقد ولا شماتة ، كل ما يهرك فيها هي الإرادة ، ارادة أن تنظر ولا تخفى عليها خافية . ويقام من مقامات صوته لم أسمع شوقي ينطق به ، قال :

— أنت عباس ...

ودون أن يرفع الرجل الهيكل رأسه سكب على

شوقي كمية ما من نظراته الميتة الوقع والطعم والادراك.  
- عيان بابه ؟

أطلقها شوقي ، حامية ، وكأننا من صدر حوته  
حرارة ما يدور فيه من انفعالات الى تنور . وأيضا لم  
يتحرك الرجل الجالس نصف جلسة ولا بدا عليه أنه  
سمع .

- عباس محسود الزنقلي ؟  
خرجت من قم شوقي كالصرخة ، كالنداء الهادر ،  
أعقبها بصرخة أخرى :  
- أنطلق .

لم أكن قد سمعت شوقي يرفع صوته أبدا الى  
درجة الصراخ ، ولم يحدث أبدا أن فقد اتزانه .

وبدأت الفرحة في نفسي تزداد، والامل يكاد ينقلب الى  
حقيقة، أفرحني ذلك الصوت الذي افتقدته سنين، وأزعجني،  
فقد كان يتوهج نفس التوهج الصادر من عيني شوقي ،  
حتى بدأت فرحتي تسترج بخوف ، أن يحدث شيء أكثر ،  
مثل أن تفاجأ بشوقي ينهال على الرجل الهيكلي ضربا  
وركلا وخنقا ، وتدخلت طالبا من شوقي أن يتذكر  
مهنته ، ويعامل الرجل بسئل ما يعامل الطبيب مريضه .  
ولكن شوقي لم يأبه لتدخلتي ، بل بدا وكأنه لم

يحبس به أصلا أو يسعسه . كان وكأنه يعاني من جنون  
الفرحة المغلولة التي تنتابنا حين تحين فرصة العمر .  
وقالت نور الزوجة :

- بالراحة عليه يادكتور .. دا عيان .  
- أنت عباس الزنقلي ؟

ورفع الرجل رأسه وأبقى نظراته الميتة معلقة على  
ملامح شوقي تتلقى الرذاذ الخارج من فمه ويصفعها  
زفيره المحسوم الذي كان واضحا أنه ينتزع من أعماق  
حقيقة ، من جروح بالغة القدم بالغة الألم ، أعسارها  
سنين ، وقروحها حية لا تزال رغم كل العمق والزمن ..  
- ما تستعبطش .. ما تعملش أنك ناسي .. مش  
فاكر العنبر .. مش فاكر علق الساعة خضمة .. مش  
فاكر دور تسعة .. مش فاكر النبابت .. مش فاكر  
الكرباج .. مش فاكر الدم .. فين كراباك وديته فين ..  
فين صراخك يا وحش فين .. فين نعل جزمك الحديد ..  
فين كهك .. فين صوابك .. فين النار فين .. بص لي  
وانطق واتكلم وصرخ .. صرخ زي زمان .. سمعني  
صوتك .. صرخ يا عسكري يا أسود .. بص لي وانطق  
واتكلم وصرخ .. ما تعملش ناسي وان عملت أفكرك ..  
حالا أفكرك ..



ولا أعرف كيف استطاع شوقي في تلك الومضة  
المتناهية الصغر من الزمن أن يخلع جاكته وقبضه  
ويرفع فافته ، ويكشف ظهره ، ويا لهول ما وقعت عليه  
أبصارنا ، لم يكن في ظهره مكان واحد له شكل الجلد  
أو مظهره ، كل جلده كان ندوبا بشعة تمتد بالطول  
والعرض وتتجمع في هضاب متدملة وتكشف عن مناطق  
غايرة ، في قاعها تكاد تبدو عظام الضلوع ، مشهد بشع  
يجعل الشعريرة تسري في جسدك ، لا مجرد مرآه وانسا  
لتساؤلك عن القسوة المتوحشة التي أحدثت كل ما تراه .  
لكأن ذنبا مجنونا أو غولا قد عمل آيابه وأظافره في ظهر  
شوقي نهشا وتقطيعا وقتكا .

في جزء من الثانية كأن قد فعل هذا ، فعله وهو  
يستدير ليواجه عباس بنظره وصراخه لا يكف :

— اذا كنت نسيته فمش ممكن حتنسى ده ..  
مش رح تنسى اللي عملته دلوقتي افكرت .

وكما بدأ فجأة كف فجأة عن عرض ظهره واستدار  
وهو يصرخ :

— لازم تفكر كويس ما تناس ، أنا مش ناسي ،  
ولا حد ناسي ، ولا حد حينسى ، انطق واتكلم وصرخ  
وقول انك فاكرك ، انطق .

وروعت لما حدث ، للطريقة التي كان شوقي يصرخ  
بها ، للصوت العالي المزعج ، للهدير ، للصراخ وكيف  
ظل يعلو ، ولل كلمات المفهومة وقد بدأت تصبح غير  
مفهومة أو متبينة ثم كيف ، لعلوها بدأت تفقد شكل  
الكلمات ويصبح كل ما يصدر عنه آخر الامر مجرد  
خيوط متصل طويل مكون من أشياء لا ندري ان كانت  
حقدا أو أنينا أو تألما وبكاء وكيف بدأ خيوطها يلتوي ،  
ويستحيل الى شيء يشبه العواء ، بل الى عواء حقيقي .  
عواء مرتجف مستبث لا يستطيع الكائن الحي أن يطلقه  
الا وهو يعاني أقصى وأحد درجات الألم ، الألم الذي  
لا يحتمله بشر ، الألم الذي لا تصرخ معه الحنجرة وانسا  
الصارخ هو الجسد نفسه ، لحم الجسد وعظامه وأعصابه  
وكأنما يجبرها الألم أن تطلق صرختها المستميتة الاخيرة .

والشيء المخيف أن كل هذا كان يصدر عن شوقي ،  
وأنا كنا ، أنا وعبدالله والزوجة ، قد أصابنا الشلل لا  
نعرف ماذا نفعل ، ومنظر شوقي يجعلنا نؤمن ألا قوة في  
الوجود تستطيع إيقافه ، لا عن الصراخ والعواء ولا عن  
قتل عباس الزقطي ، ولا عن قتل أي منا لو أراد .

أما عباس فقد ظل يسكب على شوقي نظراته المتهمة  
ولا يتحرك له جفن ، ولكن ما كان صراخ شوقي مستحيل

الى عواء حتى رأينا كأن بارقة ادراك قد تحركت فوق سطح العيون الميتة ، أعقبتهما في الحال اهتزازات عاصفة لم تلبث أن تكشفت عن نظرة ذعر ، راحت تتعمق وتتعمق وتصبح رعبا هائلا مقيما ، رعبا جعل الحياة تدب أيضا في الجالس المكوم نصف جالس ، وتدب على هيئة خوف ، فبدأ ينكمش على نفسه وينكمش ، ويزحف بزوجه بعيدا الى آخر الفراش ويصفر حجمه ويتكور ، ولم أكن أتصور أن الانسان في انكماشه يستطيع أن يصل الى هذه الدرجة من الصغر ، الدرجة التي تكاد تعتقد معها أنه لو استمر ينكمش بنفس السرعة لتلاشى حالا واختفت الكرة الانسان عن الوجود . وربما رعبه هذا وانكماشه هو الذي جعل شوقي يطارده ويتقدم في اتجاهه ويتضخم كلما رآه ينكمش ، ويقترب كلما ابتعد ، مطاردة لم يوقفها الفراش فقد ارتقاه شوقي واستمر يتعقبه ويصرخ فيه ويعوي ولا يكف ، ربما رعبه الهائل ذلك هو الذي حال ، من ناحية أخرى ، بين شوقي وبين الانقضاء عليه وازهاق روحه .

لم يكف شوقي عن تقديمه وعوائه الا حين ، فجأة فتحت الكرة البشرية الملتصقة بالحائط والتي لم يعد لها مجال للترجع ، فتحت فيها ، وأطلقت ذلك العواء المزعج الذي أخافنا ونحن في الصالة ، عواء اختلط بعواء

شوقي ، وعلا حتى أسكنه ، وحتى أوقفه في مكانه لا يتكلم أو يصرخ أو يصدر عنه صوت ، عواء مرعوب أول الأمر يستغيث ، ثم باك ، ثم عال مجنون مرتفع . ثم .. ثم فوجئنا بما لم نكن نتوقع أبدا بالعواء ينقلب الى هبة كهبة الكلب ، وبالكرة البشرية تنفرد ويمتد منها فم طويل وينفتح وينغلق في كل اتجاه ويهيب هاو هاو هاو .. وامتد الفم مرة وكاد يقضم كف شوقي ، وجزع الاخير . وبدا وكأننا قد عاد اليه وعيه ، وفي قفزة كان قد غادر مكانه فوق الفراش ليصبح بعيدا عن متناول الفم الطويل المفتوح على آخره . ولم تنقطع الهبة ، بل حدث ما هو أكثر . أطبق الفم المفتوح على يد الزوجة القريبة منه وبدأ يلوكها بين اسنانه ويضغط كمن يهم بالتهامها ، واحتملت الزوجة قليلا وهي ترجوه أن يتركها ، ولكننا وجدناها فجأة وكأننا ادركت أن يدها على وشك أن تمزق ، تطلق صرخة أعلى من كل عواء وهبة ، تعقبها بصرخات ، سعنا على اثرها دق الجيران على الباب ، بل فوجئنا ببعضهم وقد اقتحم الحجرة ودخل ، أكثر من رجل وامرأة وفي اذيالهم اطفال . ورغم وجودهم ووجودنا لم يجرؤ احد على الاقتراب من عباس وانتزع يد نور من الفم المطبق عليها . ولم ينقذها الا عودة الفم للهبة وزوال احبائه ، وبقينا جميعا وقد

انضمت الزوجة الدامعة إلينا ، وبيننا وبين الفراش مسافة ، ترقب ما يحدث ، ترقب عباس وقد بدأ يضرب الفراش ويههب ويعوي ويفرس اظافره وانيايه في قماش المرتبة ويمزقه ويمضغ القطن ، ويزداد هياجه ويبدأ بضرب وجهه بأكفه كمن يلطم ويعمل اظافره في جلده تجريحا وتمزيقا . ونحن ننظر اليه ونعتقد انه في الدقيقة التالية سيهدأ ، فلا يهدأ وكل ثانية تمر تزيد هياجا الى درجة أرعبتنا وجعلت كلا منا يفكر في مفادرة الحجرة لولا ان عباس اهوى بقمه على لحم ذراعه التحيل الذي كان يبدو من كم الجلباب الممزق وظل يضغط وينظر إلينا بعيون ملتهبة تحترق ، ويضغط ، ولعابه قد غطى الذراع المارية ومن كثرته بدأ يتساقط ويسيل ، وهو لا يكف عن النهش والضغط وكأننا هو لا يحس او يتألم او كأننا الالم يدفعه الى مزيد من الهياج وغرس اسنانه في اللحم . وكان لا بد ان يحدث ما حدث وان تدير النساء وجوههن ، وان ندير وجوهنا معهن ، ما عدا شوقي فقد لمحتة لا يستدير ، وانما يظل يتفرس في وقفة مستمتعة مريضة بما يراه ، وحين عدنا مرة اخرى نواجه عباس تبين اننا لم نكن قد تحاشينا الكثير باستدارتنا فقد وجدنا وجهه قد ارتفع عن الذراع حقيقة ، ولكن الدم كان يتساقط من فمه ويختلط بلعابه ، اذ بين اسنان الفم التي كانت قد انفجرت عنها الشفاه ،

كانت هناك قطعة لحم مدماة ، القطعة التي كان قد نجح في نهشها من ذراعه ، ذراعه التي كانت لا تزال في مكانها فوق ركبته ، ومكان العضة فيها قد اصبح جرحا متهتكا بشعا ، وكان عباس الزنطلي ، لا يزال ، رغم وجود قطعة اللحم بين اسنانه يعوي ويههب بصوت مكتوم وكأنه ينزف من صوته والدم قد بلل عواءه وخنقه .

الغريب أني كنت في تلك اللحظة بالذات قد اكتشفت ان على الحائط المجاور للفراش بروازا فيه شهادة معلقة ، حروفها تلمع تحت الزجاج المتسخ ، والاغرب اني وجدت نفسي اترك كل ما يدور في الغرفة وانهمك في قراءة ما في الشهادة . ولم تكن شهادة ، كانت براءة نيشان الواجب من الدرجة الثانية . فيها تقس الكلمات التي قرأتها في الملف ، والتي كان بصري قد الغى كل شيء حوله وتوقف عندها ، وبالذات عند كلماتها « تقديرا لتفانيه في خدمة مصالح الوطن العليا ! »

كان هذا آخر عهدي او عهد شوقي بالعسكري الاسود ، اذ يومها غادرنا المكان حتى دون ان يكتب شوقي قراره ، اذ ترك المهمة للحكيمباشي ولم استطع فيما تلا هذا من ايام ان اخمن ما حدث لوقتي ، ووقع اللقاء وما حدث فيه عليه . كنت قد وضعت خطبا كثيرة للمساعدة



المجهود مع شوقي ، وقد أجمع املتي تلك الدقائق القليلة التي رأيته فيها على حالته الاولى خاصة وقد بدا خلال الايام القليلة التي تلت ذلك شغوفاً بآثاره الموضوع بمناسبة وبلا مناسبة ، دأب التفكير فيه ، يفاجئني مرة بقوله : أتعرف انك حين تأذي غيرك تأذي نفسك دون ان تدري ، ومرة يسرح ويضحك فجأة ويقول : دع الضارب يضرب ، فيده التي تضرب تمتد ايضا الى ذات نفسه . ولم يقتصر الامر على التفكير ، دخلت عليه يوما فوجدته منهمكا في الكتابة ، وما ان رأيته حتى جمع الاوراق محاولا ان يخفيها ، ولكنني من بين اصابعه استطعت ان أقرأ عناوين فقرات .. فلسفة العلقمة ... الايام سلاح ذو حدين .. وعناوين اخرى كثيرة . وسألته فقال انه بحث قد يطلعني عليه يوما ما .

وفيا عدا هذا كفتني بضع جلسات مع شوقي أن أومن أن الحالة التي رأيته عليها وملأتني بالامل كانت كصحوة ما قبل الموت ، وأن ما حدث له من تغير والكائن الجديد الغريب الذي أصبح ، طريق لا يسكن الرجوع منه ، لا يمكن أن يعود الجلد الطبيعي مكان الندبات التي يحفل بها ظهره . أجل ، ادركت ما فاتني ادراكه طوال سنين ، ادركت ان شوقي وقد فقد امنه البشري مرة لن يعود أبدا مثلنا بشرا مرة اخرى .

ولا اعرف لماذا كلما راجعت ما حدث لا استطيع ان انسى رغم كل ما رأيته وشاهدته ، كلمة خيل الي انها عادية جدا وطبيعية ساعة ان سمعتها تقال، ولكني لا أعرف لماذا ظلت تلح علي ولا تركني . الكلمة قالتها امرأة من اللاتي حضرن على صراخ نور ، امرأة لعلها أم علي الحسادة ، وقالت ونحن تنأهب لمغادرة الحجرة وقد أصبح البقاء فيها أمرا لا يتحمله العقل وقطعة لحم عباس بين اسنانه ودماؤه تكاد تصبغ كل ما تقع عليه العين . سمعت المرأة تمصص بشفتيها وتهمس للواقفة بجوارها : لحم الناس يا بنتي .. اللي يدوقه ما يسلاه .. يفضل يعض انشا الله ما يلقاش الا لحمه .. أطف يا رب بعيذك ..

سمعتها ورتت في اذني رنين الكلام الفارغ الذي نسعه من خالاتنا العجائز لنسخر منه . ولكن لا اعرف لماذا لا تزال تلح علي ..



